e-Şarkiyat İlmi Araştırmalar Dergisi/Journal of Oriental Scientific Research (JOSR)
ISSN:1308-9633
Ağustos-2019 Cilt:11 Sayı:2 (24) / August-2019 Volume:11 Issue:2 (24) Sayfa:614-648

البعد النفسي في رواية حمامات بيض ونارجيلة لأحمد زياد محبك

Mohamad Alahmad*

ملخّص

تمنح الرواية النفسية كاتبها مجالا واسعا يبدع فيه، ويطلق المكبوتات والرغبات الدفينة في نفوس شخصياته؛ فهي فضاء خصب للتحرر من قيود الواقع، وإطلاق العنان للنفس البشرية لتعبر عن ذاتها بحرية، وذلك من خلال أقوال شخصيات الرواية وأفعالها.

وتسلك الرواية النفسية في بنائها منهجا خاصا، يجعلها تبتعد بخصائصها عن الرواية التقليدية؛ فهي تتكئ في بنائها بشكل رئيسي على ما يساعد الروائي على إضاءة دواخل شخصيات روايته.

ورواية "حمامات بيض ونارجيلة" إحدى الروايات التي اهتمت بالجانب النفسي لشخصياتها، واستطاعت أن تجسد هذا الجانب في الإنسان الحلبي؛ أبرزت فيه مشاعره وأفكاره، وبينت ما يعانيه نتيجة التغيرات الاجتماعية.

يسعى هذا البحث إلى تعريف بهذه الرواية، ودراسة أبعادها النفسية. وذلك من خلال تتبع تيار الوعي في بنائها، بالإضافة إلى دراسة الجوانب النفسية، والصراع النفسي، والأحلام لدى شخصياتها.

كلمات مفتاحية: الرواية النفسية، حمامات بيض، نارجيلة، أحمد زياد، محبك

AHMED ZIYÂD MUHABBIK'IN BEYAZ DIŞI GÜVERCİNLER VE NARGİLE ADLI ROMANININ PSİKOLOJİK BOYUTU

Öz

Psikolojik romanlar, roman kahramanlarının eylem ve söylemleri aracılığıyla insanın içindeki duygu, düşünce ve eğilimlerin ortaya çıkarılmasında; bu duygu ve düşüncelerin açıklanması ve yaşadığı toplumun baskısından nasıl kurtulacağı konusunda okuyucuya aktarmakta, özgür ve elverişli bir hareket alanı sunmaktadır.

Psikolojik romanlar yapısı ve özel anlatım yöntemleriyle diğer klasik romanlardan ayrılırlar. Bu türün yazarları eserlerinde, kahramanlarının iç dünyasını ele alır.

"Beyaz Dişi Güvercinler ve Nargile" Romanı ise, kahramanlarının psikolojik yönüne değinen önemli romanlardan biri olup Halepli bir kişinin; iç dünyasını ortaya koymada

Article Types/Makale Türü: Research Article/Araştırma Makalesi
Received/Makale Geliş Tarihi: 20/05/2019, Accepted/Kabul Tarihi: 01/09/2019
Doi: 10.26791/sarkiat.568127

*Dr. Öğr. Üyesi, Gümüşhane Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı. mohamadalahmad@gumushane.edu.tr

ORCID ID: https://orcid.org/0000-0002-3690-236X

başarılı olmuş bir eserdir. Ayrıca içinde yaşadığı toplumsal değişikliklerin getirdiği sıkıntıları ele almaktadır.

Bu araştırma, böyle bir romanı ve romanda ele alınan bilinç akışı süreciyle psikolojik boyutunu açıklamaya çalışmış, kahramanlarının psikolojik yönlerine, iç çatışmalarına ve hayallerine değinmeye çalışmıştır.

Anahtar Kelimeler: Psikolojik roman, Beyaz Dişi Güvercinler, Nargile, Ahmed Ziyâd, Muhabbik

THE PSYCHOLOGICAL FRAMEWORK OF AHMAD ZİAD MUHABBEK'S NOVEL, WHITE DOVES AND NARGILE

Abstract

A psychological novel endows its author with a wide space to excel in, brings out impulses in his psyches' characters. It is a fertile place to dismiss reality constraints, and allow to human psyche to express itself freely through characters' remarks and acts in the novel.

A psychological novel follows a particular approach in its framework whose characteristics make it different from conventional novels. Psychological novels rely in its framework upon what lets the novelist demonstrate his characters' depths.

"White Doves and Nargile Novel" is a novel in which the psychic dimension of its figures was considered. It was possible to embody this side in Aleppian human, show his thoughts and emotions, and demonstrate what they suffers due to social transformations.

This study aims to define this novel, demonstrate its psychological framework through exploring stream of consciousness in its settings, characters' psychological space, internal conflict, and daydreams.

Keywords: Psychological novel, white doves, nargile, Ahmed Ziyâd, Muhabbek

مقدمة

تتكئ دراسة البعد النفسي في الرواية على المنهج النفسي الذي يقصد به في النقد "الآليات والأدوات الإجرائية التي يعتمدها الناقد في فهم أسرار الأدب ودراسته، مرتكزا على نظريات علم النفس التي جاء بها سيغموند فرويد (Sigismund Freud) (ت. 1939)، وتبعه فيها عدد من علماء النفس".[1]

ويعد التحليل النفسي للشخصيات الروائية في الرواية الأساس الذي ينطلق منه هذا النوع من الدراسات بهدف التعرف إلى شخصية الروائي، والكشف عن المكبوتات الداخلية له.[2] ويعتمد هذا التحليل على فهم فرويد لنفس الإنسان، كما يستعين بآراء وأفكار علماء نفس آخرين.

ينطلق فرويد من فكرة رئيسية في فهم النفس البشرية، مفادها أن اللاوعي يغطي المساحة الأكبر والأهم من نفس الإنسان، بينما يحتل الوعي مساحة صغيرة،[3] ويرى أن الشخصية حصيلة التفاعل بين ثلاثة أنظمة تكوّنها، هي:[4]

[1] صالح الدين ملفوف، "نظريات علم النفس في الرواية الحديثة رواية السراب نموذجا"، *مجلة الآداب واللغات في جامعة قاصدي مرباح* 9(مايو 2010)، 314.

[2] قطر الندى برناوي، *البعد السيكولوجي في رواية أحلام مدينة لفريدة إبراهيم* (رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة محمّد خيضر بسكرة،2017)، 10- 12.

الهو: هو المجهول الذي لا نعلمه إلا من خلال تأثيراته، ويمثل ما نولد به من مكونات نفسية وراثية، ويطلق عليه فرويد الليبيدو أو مبدأ اللذة، ويهتم بالغرائز والمكبوتات. إنه الواقع النفسي الحقيقي للشخصية، ومخزن الرغبات الخفية. "وهو لا يراعي المنطق أو الأخلاق أو الواقع، واللاشعور هو الكيفية الوحيدة التي تسود في الهو".[5]

الأنا: ويشرف "على الحركة الإرادية، ويقوم بمهمة حفظ الذات ويقبض على زمام الرغبات الغريزية التي تنبعث عن الهو فيسمح بإشباع ما يشاء منها ويكبت ما يرى ضرورة كبته مراعيا مبدأ الواقع، ويمثل الأنا الحكمة وسلامة العقل".[6] والأنا جزء من الهو يتخارج عنه، ويعيش بطاقة الهو، وإذا كان الهو لا منطقي فالأنا منطقي ومنظم، ولأن عمليات الأنا ليست أصلية أو أولية كعمليات الهو فإن فرويد يسميها عمليات ثانوية.

الأنا الأعلى: هو الأثر الذي يبقى في نفس الإنسان من فترة الطفولة التي يعتمد فيها الطفل على والديه، ويخضع لأوامرهما ونواهيهما، ويقوم عادة بتقمص شخصيتهما، ومن يشبههما من المدرسين والمربين، وبذلك تتحول سلطة هؤلاء الأشخاص الخارجية إلى سلطة نفسية داخلية في نفس الطفل تراقب أفعاله.[7] فالأنا الأعلى ينير الطريق أمام الإنسان، ويهدف إلى إيصاله إلى بر الأمان، ويحاول دائما أن يبعده عن الغرائز التي قد تدمره وتقضي عليه.

ويرى فرويد أن "مبدأ اللذة، دون غيره، هو الذي يحدد هدف الحياة، ويتحكم من البدء بعمليات الجهاز النفسي"،[8] وأن الهو يعمل على التخلص من الضيق والألم اللذين يحدثهما التوتر وينشد اللذة، ويستخدم لذلك العمليات الأولية التي تتجلى في الاستجابات البسيطة؛ إذ بفضلها تتشكل صور موضوعات إشباع الحاجات الفطرية التي تساعد على تفريغ الشحنات الزائدة من الطاقة وتخفف من توتر الكائن البشري.[9] ويرى أن الأنا هو الجهاز الإداري المنفذ للشخصية، يتحكم بالهو وينظمه، ويدير شؤون الأنا الأعلى ويضبطها، وذلك لأنه جزء من الهو لصيقا به، ومنفتحا على العالم الخارجي. وإذا ما أحسن الأنا القيام بوظائفه وتمكن من التوفيق بين حاجات الهو ومتطلبات الأنا الأعلى فإنه يضمن للشخصية انسجامها وتوازنها، بيد أنه يسبب في اختلال الشخصية واضطرابها إذا ما مال إلى أحد الطرفين ووقع تحت تأثيره.[10] كما يرى أن الإنسان يولد بعدد من الغرائز، ويتوقف بقاؤه واستمراره على إشباع هذه الغرائز، وهذا الإشباع يتم عبر تبادل الأشياء العضوية والعناصر الحيوية مع العالم الخارجي.[11]

ويمكن القول وفق فهم فرويد إن المشاعر النفسية من حب وكراهية وحزن وقلق وغيرها ذات طبيعة فطرية تولد مع الإنسان، وتمتلك طاقة تحرك النشاط النفسي للشخص وتوجهه نحو إشباعها، لكنها ربما اصطدمت بعوائق خارجية مصدرها المجتمع؛

---

[3] بدر الدين عامود، *علم النفس في القرن العشرين* (دمشق: اتحاد المتاب العرب، 2001)، 1: 263- 266.

[4] فيصل عباس، *التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية*، ط1 (بيروت: دار الفكر العربي للطباعة والنشر، 1996)، 33.

[5] سيغموند فرويد، *الأنا والهو*، ترج. محمد عثماني نجاتي، ط4 (بيروت: دار الشرق، 1982)، 16.

[6] فرويد، *الأنا والهو*، 16.

[7] فرويد، *الأنا والهو*، 17.

[8] سيغموند فورويد، *قلق في الحضارة*، ترج. جورج طرابيشي، ط4 (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1996)، 23.

[9] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 281.

[10] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 282.

[11] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 269.

لمخالفتها الأشكال والأساليب المتبعة في هذا النشاط للقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع، وهذا ما يقود إلى كبت الانفعالات والأفكار التي رافقت أو نجمت عن حرمان الغريزة من الإشباع.[12]

وثمّة آراء في التحليل النفسي تتعارض مع آراء فرويد، فآلفرد آدلر (Alfred W. Adler) (ت. 1937) صاحب كتاب "قانون العصاب" الذي عُد بمثابة الإعلان عن ميلاد "علم النفس الفردي"، هو أحد أعضاء جماعة التحليل النفسي الذين عارضوا موقف فرويد من "الغريزة الجنسية" واعتبارها الدافع المركزي للسلوك البشري. ويرى آدلر أن التعويض والتعويض الأعلى هو الدافع للسلوك البشري؛ أي إن رغبة الإنسان في تجاوز عقدة النقص فيه وتأكيد ذاته وإرادته في السيطرة تحددان تطوره اللاحق، ويعتقد أن الطفل يتعرف إلى صفاته وإمكاناته العضوية من خلال تجربته الاجتماعية، وأن العامل الاجتماعي هو الذي يقرر وضع الفرد في الحاضر والمستقبل. ويرى أن مهمة المحلل النفسي تكمن في الحكم على الهدف النهائي للإنسان، وهذا ما لا يتيسر إلا عبر معرفة الكيفيات التي يتجاوز بها الفرد مصاعب الحياة، وأن هذه المهمة تفسح المجال واسعا أمام التعرف إلى أسباب ظهور هذه الخصائص النفسية أو تلك، والتنبؤ بالملامح التي سوف تتخذها الشخصية في المستقبل (الطبع، الانفعال، الخلق، الحس الجمالي، التفكير ...).[13] كما يرى أن لكل فرد أسلوبا حياتيا خاصا به، يطبع نشاطه ويوجه تمثله للتجربة الذاتية منذ الصغر؛ فالحادثة الواحدة لا تثير لدى شخصين نفس المشاعر وردود الأفعال.[14]

ويمكن القول وفق آراء آدلر إن تحقيق الرغبات ليس هدفه إشباع اللذة، إنما تأكيد الذات وإظهار التفوق والسيطرة في المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد.

ويعترض كارل يونغ (Carl Jung) (ت. 1961) أيضا على موقف فرويد الذي أكد أن الرغبات الجنسية تلعب دورا استثنائيا في الحياة النفسية للإنسان، ويرى أن الليبيدو طاقة نفسية، وليس طاقة جنسية كما يرى فرويد، وأن هذه الطاقة النفسية تتضمن فيما تتضمن الرغبة الجنسية بوصفها شكلا من أشكال تجلياتها. ويرى أن اللاوعي ذو صبغة سيكولوجية وليست بيولوجية كما يرى فرويد، وأن ثمة أفكارا رمزية وشاملة تنتقل بالفطرة عبر الأجيال، وتؤلف قاعدة لكل ما سوف يكتسبه أو يتمثله المرء من تصورات خلال مراحل حياته. ويطلق يونغ على هذه الأفكار اسم "الأنماط الأصلية أو الأولية"، وتؤلف هذه الأنماط جزءا هاما من اللاوعي يسميه يونغ "اللاوعي الجمعي"، ويضم إلى جانبه لاوعي فردي يرتبط بالسيرة الذاتية للفرد وبتجاربه الحياتية.[15]

وكورت ليفين (Kurt Lewin) (ت. 1947) الذي أسس مدرسة "المجال النفسي" يرفض الطابع البيولوجي الفطري الذي طبع فرويد الدوافع به، ويستبدله بطابع اجتماعي- سيكولوجي. فهو يرى أن الدوافع تتكون عبر شبكة العلاقات المتبادلة والمباشرة بين الشخص وبيئته في لحظة معينة، وأن الدوافع لا تعمل بمعزل عن الوسط الذي يتحرك فيه الفرد؛ أي إن الذات تؤلف مع الموضوع مجالا ديناميا تؤثر فيه وتتأثر به، وأن أي توتر يحل بإحداها يستجر- بالضرورة- العمل على التخلص من هذا التوتر واستعادة التوازن للمجال بأكمله، وهو ما يطلق عليه "الحيز الحيوي" الذي تجري الوقائع

[12] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 270.
[13] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 292- 295.
[14] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 295.
[15] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 302- 304.

السيكولوجية ضمن حدوده. ويتألف هذا الحيز من دوافع الفرد وقدراته، وعناصر البيئة التي تقع ضمن ساحته الإدراكية، والتي يمكن التعامل معها في لحظة ما.[16]

ومن المفيد العودة إلى الفكر الإسلامي للاستفادة منه في هذه الدراسة، فقد حظيت مسألة النفس اهتماما وافرا لديهم، ولا سيما الفارابي (ت. 950/339) وابن سينا (ت. 1037/427).

تشمل النفس عند الفارابي خمس قوى متعاقبة من حيث وجودها الزماني وأهميتها، هي: القوة الغاذية، والقوة الحاسة، والقوة النزوعية، والقوة المتخيلة، والقوة الناطقة، وتتركب كل قوة من هذه القوى من قوة رئيسية واحدة، وقوى أخرى ثانوية تعمل لمصلحتها، باستثناء القوة الناطقة التي لا تتفرع عنها أي قوة؛ لأنها قوة رئيسية بين سائر قوى النفس. والقوة النزوعية عنده هي التي تشتاق إلى الشيء وتكرهه وهذه القوى هي التي بها تكون، والنزوع قد يكون إلى علم شيء ما أو عمل شيء ما.[17]

وينطلق ابن سينا من نظرته الثنائية إلى الإنسان، ويرى أن النفس تختلف جوهريا عن الجسد. ولما كانت النفس جزءا من العالم العلوي، على العكس من الجسد الذي يتكون من العناصر الأربعة (التراب والماء والنار والهواء)، فإنها تتحد به عقب الولادة، وتفارقه بعد الموت لتعود إلى الباري عز وجل فتُحاسب على ما فعلت أثناء وجودها على الأرض. وينظر إلى النفس من خلال ثلاثة مستويات: النباتي والحيواني والإنساني، ويقوم المستوى النباتي بوظيفة التغذية والنمو والتكاثر، وتقوم النفس الحيوانية بوظائف الإحساس والتخيل والحركة، أما المستوى الإنساني فوظيفته العقل. وتحدث ابن سينا عن إدراك ظاهري تقوم به الحواس الخمس، وإدراك باطني تقوم به حواس داخلية، وربط بين النفس والعالم الخارجي. ورأى أن دور التربية لا يقتصر على النمو الجسمي عند الفرد فحسب، بل يشمل الخصائص النفسية أيضا، ذلك لأن النفس تؤثر على البنية الثابتة العضوية؛ فمواقف الإنسان ومشاعره نحو العالم الخارجي تغير مجرى العمليات الفزيولوجية لديه، ووجودها لا يحدث بشكل عفوي أو تلقائي، وإنما نتيجة تأثير الآخرين عليه خلال مراحل حياته المتعاقبة.[18]

1. ملخص الرواية

"حمامات بيض ونارجيلة"[19] لأحمد زياد محبك[20] رواية قصيرة جاءت في مئة واثنتي عشرة صفحة، تدور أحداثها في مدينة حلب في النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، فترة بزوغ الفكر الاشتراكي وتطوره لدى جيل الشباب في خمسينيات القرن العشرين وبعدها نتيجة انتشار المطبوعات المروجة لهذا الفكر، وتتناول الرواية المشكلات الاجتماعية والإدارية في تلك الفترة، ولا سيما مشكلة الفساد والتزوير والتلاعب والغش والسرقة واستغلال الناس ونقل

---

[16] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 311- 312.

[17] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 38- 39.

[18] عامود، علم النفس في القرن العشرين،1: 41- 42.

[19] أحمد زياد محبك، *حمامات بيض ونارجيلة* (حلب: دار الفرقان، 2011).

[20] قاص وروائي وناقد سوري، وأستاذ الأدب العربي في جامعة حلب. ولد في مدينة حلب عام 1949، وحاز على الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام 1984. حاضر في عدد من الجامعات السوريّة والعربية والعالمية، وله مؤلفات كثيرة في دراسة المسرحية والشعر والرواية. نشر خمس عشرة مجموعة قصصية، منها: "يوم لرجل واحد" (1986)، و"حجارة أرضنا" (1989)، و"وردات في الليل الأخير" (2005)، و"نجوم صغيرة" (2006)، و"الأعمدة والغزالة" (2009). كما نشر ثلاث روايات، هي: "الكوبرا تصنع العسل" (1996)، و"حمامات بيض ونارجيلة" (2001)، و"شقة على شارع النيل" (2018). وله رواية كتبها عام 2010 عنوانها "النيل لا يجف"، لم تنشر بعد.

الملكيات من دون علم أصحابها بدعم أصحاب النفوذ والسلطة وتواطئ القضاء. وتتحدث عن الصحافة ودورها في الحياة، وأثرها في الناس، وشكل الصحف، وأساليبها في جذب المشترين، وما ينبغي أن تكون عليه، ودور المطالعة في الحياة، واستخدام الشبكة العالمية.

وترصد الرواية حالة المرأة في المجتمع الحلبي في تلك الفترة، فتبدو مظلومة لا حول لها ولا قوّة في مجتمع شرقي ذكوري غير مكترث بحقوقها وواجباته نحوها. وتصف البيئة الحلبية بأمكنتها وعادات أهلها في أفراحهم وأحزانهم وألبستهم وأطعمتهم والعلاقات الودية الأسرية الحميمة. كما تصف بزوغ بعض الأفكار الجديدة لدى جيل الشباب تتعارض مع أفكار الآباء، وتؤثر سلبا في العادات الحلبية، وتدعو إلى علاقات دافئة بين الأجيال، والتمسك بعادات الآباء والأجداد وتعاليمهم التي تؤدي بدورها إلى تماسك المجتمع وتخفيف الضغط على جيل الشباب الذي يبدو متخمًا بمشكلات اجتماعية ناشئة ناتجة عن تغييرات اجتماعية.

وتركّز على الجانب النفسي في شخصياتها، وتكشف معاناة الحلبيين بسبب ظروف الفقر الصعبة التي يمرّ بها الموظفون، والاستغلال الذي يتعرّضون له من مديريهم، مما ينعكس على حياتهم ويدفعهم إلى ردود أفعال غير متوقعة نتيجة الضغط النفسي.

وتقدّم الرواية هذه الطروحات من خلال شبكة من العلاقات الاجتماعية بين شخصيات متعددة في الرواية تتقدمها شخصيتان رئيسيتان، هما: بكري وهشام.

يقيم بكري صاحب الخمسة والستين عامًا وحيدا في بيته في حي العرقوب الحلبي في شبه عزلة لا يزوره فيها إلا جاره هشام، ولا يملك تواصلًا مع أقارب إلا ابنته ليلى التي تعيش في أمريكا وتتواصل معه في المناسبات فحسب. وكان قد درس الحقوق وعمل في مكتب البريد مدة ثلاثين عامًا ثم أحيل إلى التقاعد.

تثقف بالفكر الاشتراكي المناهض للإقطاع والرأسمالية، وآمن به أيام دراسته الثانوية والجامعية، وقرأ لماركس ولينين، وتشبه بجيفارا وقلد كاسترو، وظن أباه صاحب المعمل الصغير رأسماليًّا مستغلا، لكنه عدل عن هذا الفكر في أواخر حياته، وفهم حقيقته، وأدرك الخطأ المنضوي تحته. كما قرأ لاسبينوزا وديكارت ونيتشه وسارتر في أواخر حياته. ويبدو بكري مثقفًا مطلعا على مختلف أنواع الثقافات التاريخية والجغرافية والسياسية والوجودية والشيوعية وعلم الأديان، وهو يستخدم الشبكة العالمية التي وفرت له منافذ على العالم كله.

خبر بكري الحياة وخبر فيها أنواعًا من الرجال والنساء خلال سنوات عمره، ومرّ بعدة علاقات نسوية، ولا سيما روضة زميلته في كلية الحقوق، التي بقي على علاقة بها مدة ستة أشهر، ثم انصرف عنها لاكتشافه علاقتها بأحد المتنفذين، وهو مدير أحد المصارف. ونجوى خريجة علوم تعرف إليها في مكتب البريد حين أخبرها برسالة عقد عمل من المملكة السعودية، وعرض عليها الزواج فقبلت بشرط مرافقتها لكنه رفض، فاصطحبت غيره. ونوال زميلته في الوظيفة التي تزوج بها بعد وفاة زوجها وكان في الخمسين من عمره، وعاشا عشر سنوات ثم ماتت. ودلال طالبة دكتوراه كانت تزوره قبل ثلاث سنوات، حين استعانت به لإتمام رسالتها الدكتوراه، وحاورته حول التدريس والمناهج والعلاقة بين الزملاء والعلاقة مع الأساتذة والمشكلات الامتحانية في كلية الحقوق.

وبكري شخصية رومانسية يحب الزهور والرياحين والحمامات والفراشات البيض، ويملك إحساسًا مرهفًا، ويحب الخير للناس. ويرى المرأة مظلومة، ويبدو متعاطفًا معها إلى حد بعيد. ويحب الحرية؛ لهذا أهدى الحمامات البيض في نهاية الرواية

إلى أبي محمود لتعيش في فضاء القرية بدلا من القفص الحديدي. كما يحب السعادة ويمقت البكاء والحزن؛ لذا اعترض على لوحة الطفل الباكي التي علقها جاره هشام في بيته. ويرى بكري نفسه مقصرًا في أداء فرائضه الدينية؛ ولهذا يخجل من نفسه، ويتساءل كيف سيلقى الله وهو على هذا الحال.

وهشام جار بكري، يعمل محاسبا في معمل نسيج، وهو متزوج وله طفلة، لكنه يعاني مشكلات زوجية سببها الضائقة المالية التي يعيشها، والضغط الذي يسببه له مديره؛ فقد طلب منه تزوير دفاتر الحسابات ليسرح عمال المعمل ويتخلص من دفع الضرائب، لكنه ما استطاع أن ينفذ أوامر مديره، فازدادت حدة مشكلاته مع زوجته كما ازداد الضغط النفسي الذي يعانيه، ودفعه إلى الانتحار.

وتضع الرواية كلا من بكري وهشام المحاسب اللذين يمثلان الفئة الاجتماعية المظلومة مقابل هشام المدير المستغل المؤذي المخادع الذي سرق المعمل من صاحبه الأساسي والد بكري، وتحكم بعدها بهشام الموظف وبالعمال. وهشام المدير يمثل الفئة الاجتماعية الاستغلالية الظالمة المتحكمة المتسترة بالدين، التي تفسد حيوات الناس حولها، وتسبب لهم مشكلات نفسية ومادية واجتماعية. فهو السبب الرئيسي بعزلة بكري، وهو السبب أيضا في مشكلات هشام المحاسب مع زوجته، والدافع إلى انتحاره.

2. تيار الوعي والتداعي الحر

رواية "حمامات بيض ونارجيلة" من نوع الروايات النفسية التي تهتم بما تحمله النفس البشرية من أسرار؛ فتتغلغل في ذوات شخصياتها، وتنبش ما في دواخلها من عقد نفسية، وتبرز مشاعرها وأحاسيسها للمتلقي. وهي تمكن قارئها من فهم الكثير من الجوانب النفسية لمؤلفها، بسبب الصلة المباشرة بينه وبين شخصياته الروائية.

ويبدو الاهتمام بالجانب النفسي في الرواية من خلال تصوير مشاعر الشخصيات وعواطفها وسلوكها، وطباعها ومواقفها من القضايا المحيطة بها. كما يبدو من العقد والأمراض النفسية التي ألمت بها بسبب مصاعب واجهتها في الحياة، أو نتيجة ندمها على أخطاء ارتكبتها، أو نتيجة كونها ضحية ممارسات ظالمة مارستها شخصيات أخرى بحقها.

ويمتاز البعد النفسي في الرواية بالتوتر والقلق والاضطراب الذي يبدو قاسما مشتركا بين الشخصيات رغم اختلاف الأسباب، ويومئ إلى أن ثمة أزمة إنسانية في الرواية تدفع شخصياتها إلى عدم الشعور بالطمأنينة.

ويمكن القول إن الرواية تنتمي إلى ما يعرف في الكتابة بالواقعية النقدية؛[21] فالرواية تستغور الحياة النفسية الداخلية وتفصح عما يهدد الإنسان نتيجة الفساد الاجتماعي. ويتأرجح البعد النفسي لدى شخصياتها بين الإحباط من الواقع الراهن نتيجة الأمراض الاجتماعية السائدة من ظلم واستغلال و فساد إداري، والإحباط من الماضي نتيجة الندم على ما فات من أخطاء وقع بها بعض أشخاص الرواية، وبين الأمل في المستقبل من خلال تغيير القوانين وتنشئة الأطفال وتوعيتهم بما يتناسب مع مستقبل أفضل تنتفي فيه هذه الأمراض أو تتضاءل.

لجأ الروائي لإبراز الجوانب النفسية في الرواية إلى تيار الوعي، وهو عبارة أطلقها عالم النفس وليم جيمس؛ ليعبر عن الانسياب المتواصل للأفكار والمشاعر داخل الذهن، واعتمدها نقاد الأدب من بعده؛ لوصف نمط من السرد الحديث

[21] س. بيتروف، *الواقعية النقدية في الأدب*، ترج. شوكت يوسف (دمشق: وزارة الثقافة، 2012)، 5-11.

يعتمد الشكل الانسيابي، ولا سيما في الرواية التي برعت في إبراز تجربة الفرد الداخلية، ونقلت الانفعالات والأحاسيس والذكريات.[22]

يتيح تيار الوعي لشخصيات الرواية التعبير عن نفسها، والكشف عما يدور بداخلها دون قيود، ودون أهمية للتسلسل المنطقي في تقديم المعلومات.[23] وهو ماطبقه فرويد نفسه على إحدى مريضاته وتدعى "أيمس فون"، التي طلبت منه أثناء جلسات علاجها ألا يقاطعها بأسئلته ويدعها تسترسل في استرجاع ذكرياتها بالشكل الذي تريده.[24]

وقد اتكأ الروائي أحمد زياد محبك على تيار الوعي في بناء روايته بشكل رئيسي، واستطاع من خلاله أن يسرد بزمن قصير نسبيا، امتد من الصباح إلى الظهر، حياة شخصياته التي امتدت منذ طفولة بكري إلى بلوغه الخامسة والستين؛ فقدم ماضي الشخصيات، ولا سيما بكري وهشام المحاسب، وفسح لهما التداعي الحر المجال واسعا للتعبير عن أفكارهما، والكشف عن معاناتهما ومشاعرهما تجاه العالم الروائي الذي يعيشان فيه.

فقد كشف بكري عن معاناته مع هشام المدير، ومديره في مكتب البريد، وكشف عن ثقافته، وعن شبكة علاقات جمعته بالنساء خلال مراحل حياته، وعبر عن مشاعره تجاه كل منهن، كما كشف عن موقفه من بعض القضايا الاجتماعية، ولا سيما قضية المرأة عامة، ومشكلة الخلافات الزوجية، وموقفه من الثورة الاشتراكية، ومن الدين، وغيرها.

إن بكري يشبه إلى حد بعيد "برثا بابنهايم"،[25] ولا سيما في استعادته لذكرياته العاطفية، فقد أشار بكري إلى أنه سيبوح بعلاقاته العاطفية كلها، يقول: "تذكرت نجوة ونوال وابنتها ليلى وروضة، بحت بأسمائهن جميعا، بقيت دلال، لماذا لا أتحدث عنها؟ ...".[26] وكأنه لن يصل إلى الارتياح ما لم يكشف عن علاقاتها العاطفية كلها.

كما كشف هشام المحاسب عن معاناته بسبب هشام المدير ومشاعره تجاهه، وذكرياته مع زوجته قبل الزواج، ومواقفه منها، ومن أمه، وجاره بكري، ومن الدين، والحياة.

ولم تخضع الرواية للتسلسل المنطقي لاعتمادها على التداعي الحر، فترك الروائي شخصياته تسعيد ذكرياته دون رابط زمني، فتداخلت المعلومات المقدمة، وتداخل الحاضر بالماضي، والمنولوج الداخلي مع حوار الشخصيات. وقد عمد الروائي إلى جعل روايته في مقاطع صغيرة غالبا، اقتصر بعضها على نصف سطر، وبعضها سطر أو سطرين، وقد طال بعضها ليصل إلى صفحة كاملة، وفصل كل مقطع عن الآخر بإشارة استخدمها طوال روايته. فقد قدّم السرد- على سبيل المثال- مقطعا لزيارة هشام المحاسب بحوالي ستة أسطر، تلاه مقطع من خمسة أسطر أبدى فيه بكري عبر منولوج داخلي عدم حبه للجلابية البيضاء، ثم تلاه مقطع من عشرة أسطر تقريبا عاد إلى حوار الجارين وصف فيه بكري النارجيلة وعبر هشام عن موقفه من الزواج، ثم تلاه مقطع منولوج داخلي عبر فيه بكري عن موقفه الخلافات الزوجية، ثم عاد الحوار، وبعده مقطع استرجاع قدم فيه هشام في منولوج داخلي ذكرياته الأولى مع زوجته، ثم عاد الحوار بين الجارين، ثم عبر هشام المحاسب في

[22] لطيف زيتون، *معجم مصطلحات نقد الرواية*، ط1 (لبنان: دار النهار للنشر والتوزيع، 2002)، 66.

[23] برناوي، *البعد السيكولوجي في رواية أحلام مدينة الفريدة إبراهيم*، 63.

[24] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 263.

[25] هي إحدى مريضات الهستيريا التي أشرف فرويد وزميله بروير على علاجها، واستطاعت أن تستعيد الوقائع والأحداث المتصلة بماضيها العاطفي، وأعربت عن ارتياحها وامتنانها بعد تلك الاستعادة. ينظر عامود، علم النفس في القرن العشرين، 261.

[26] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 93.

منولوج داخلي عن مشاعره تجاه زوجته وبعض ذكرياته معها. وهكذا استمر القسم الأول من الرواية، الذي انضم إلى الحوار فيه كل من أم هشام وزوجته وابنته، وتداخل بين جمل الحوار ذكريات كل من بكري وهشام.

إن تيار الوعي الذي اعتمد عليه الروائي في بناء هذه الرواية أتاح للشخصيات أن تنبش ما في نفوسها من مشاعر ظلم وكراهية وحب وخوف وقلق وحزن واغتراب وأمل وغيرها، وتكشف عن صراعاتها النفسية، وتسرد أحلامها للقارئ، وهو ما سنتتبعه بالتفصيل في الجزئيات التالية من البحث.

3. الجوانب النفسية للشخصيات

1.3. الظلم

معنى الظلم لغة: وضع الشيء في غير موضعه،[27] والظلم: الجور ومجاوزة الحد.[28] أما إصطلاحا فيعني: التعدي عن الحق إلى الباطل وهو الجور، والتصرُّف في ملك الغير ومجاوزة الحد.[29]

ينتج الظلم من الحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان مع بني جنسه، والذين ليسوا بعيدين عن ممارسة الظلم إزاء بعضهم البعض؛ ولهذا يرى فرويد أن الإنسان ليس "بذلك الكائن الطيب السمح، ذي القلب الظمآن إلى الحب، الذي يزعم الزاعمون أنه لا يدافع عن نفسه إلا متى هوجم، وإنما هو على العكس كائن تنطوي معطياته الغريزية على قدر لا يستهان به من العدوانية".[30] كما يرى أن "الإنسان نزاع إلى تلبية حاجته العدوانية على حساب قريبه، وإلى استغلال عمله بلا تعويض، وإلى استعماله جنسيا بدون مشيئته، وإلى وضع اليد على أملاكه وإذلاله، وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله. الإنسان ذئب الإنسان".[31]

يشكّل الظلم المركز الذي تنطلق منه أحداث الرواية، وتدور في فلكه معظم شخصياتها؛ فهي إما مظلومة أو ظالمة، ومبعث الظلم في الرواية الاستغلال على اختلاف طرقه. ويبدو هشام مغتصب المعمل في قمة هرم الظلم، فهو الظالم الأكبر في الرواية، فقد استغل وظيفته وسرق معمل والد بكري، يقول بكري: "فوجئت، كل شيء مسجل باسمه، لم يمض على استلامه المعمل مديراً له سوى ست سنوات حتى كان قد جعل كل شيء باسمه، مع العلم بأن والدي لم يكتب له أي تفويض رسمي ولا وكالة عامة ولاخاصة، كيف استطاع جعل كل شيء باسمه، لا أعرف؟".[32]

لقد أعلن هشام استلاءه على المعمل بعد وفاة والد بكري، ثم ماتت أمه بعد سنتين من وفاة والده حزنا وكمدا على فقدان كل شيء،[33] وبعدها راح هشام هذا يمارس ظلمه على عمال المعمل، ويستغلهم كما يريد، ويحقق ما يشاء، يتزوج بمن يشاء من النساء، ويطلق من يشاء، وحين أراد تسريح معظم العمال أمر محاسبه الذي يحمل الاسم ذاته (هشام) أن يزور دفاتر الحساب؛ ليعلن خسارة المعمل، وتسريح العمال. ولم يكتف بذلك، بل وضع عينه على زوجة هشام المحاسب أيضا،

---

[27] مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، "ظلم"، *القاموس المحيط*، تحقيق. محمّد نعيم العرقسوسي، ط8 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2005/1426)، 1134.

[28] ابن منظور، "ظلم"، *لسان العرب*، تح: عبد الله علي الكبير– محمّد أحمد حسب الله– هاشم محمّد الشاذلي، طبعة جديدة (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 4: 2756.

[29] علي بن محمّد السيد الشريف الجرجاني، "ظلم"، *معجم التعريفات*، تح: محمّد صديق المنشاوي (القاهرة: دار الفضيلة، د.ت)، 121.

[30] فرويد، *قلق في الحضارة*، 72.

[31] فرويد، *قلق في الحضارة*، 72.

[32] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 12.

[33] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 15.

فتسبب بشقائه، يقول هشام المحاسب: "المدير سبَبُ شقائي كله، جعل حياتي كلها مُرّةً مثل هذه القهوة المرة، ضع الدلة كلها هنا إلى جواري بعد إذنك، لأتجرَّعها كلها، المدير لم يجعل حياتي مرّة فقط، المدير سمّم حياتي كلّها".[34]

إن الظلم الذي مارسه هشام المدير أدى إلى موت والدة بكري، وعزوف بكري عن الزواج، وعجزه الجنسي فيما بعد، كما سبب انتحار هشام المحاسب في نهاية الرواية.

وثمة ظلم نتج عن الاستغلال الإداري الذي مارسه مدير البنك عبد القادر إسماعيل على نجوى، وذلك حين استغل ضعفها في فترة سكر، وفض غشاء بكارتها بقطعة نقدية ملفوفة من فئة الدولار، ثم أشاع بين موظفيه بعلاقته بها ليغطي عجزه الجنسي، وفضحها بين زملائها، وحوّل حياتها جحيما. وعندما حاولت إنقاذ حياتها بحب بكري، تخلى عنها حين علم بقصتها، تقول لبكري وهي تحبس دموعها: "عبد القادر حاول النيل مني فوق سرير الدولارات، أنا وهبتك نفسي في شقة غير مكتملة، أنا باب من غير زجاج، كسرني عبد القادر مرة، لكن أنت حطمتني".[35]

إنها مظلومة من مديرها الذي استغلها، ومن الرجل الذي أحبته، فاستغل حبها وحصل على ما يريد. ويمكن أن يشعر المتلقي بمدى معاناتها الظلم من قولها لبكري في آخر لقاء لهما:

> "أنا أحببتك، أحببتك، والله أحببتك، ما طلبت منك أي شيء، لم أطلب أن تتزوّجني، لم أخدعك، لم أكذب عليك، نعم، عبد القادر اغتصبني، أنا أكرهه، أود أن أقتله، ولكن لا أريد أن ألوث يدي به، لا أريد أن أنهي عمري عنده، أنا أحبك، اقتلني، اذبحني، لا، أنا مستعدة لأعيش العمر كله معك، هكذا، لا زواج ولا بيت ولا أولاد، لا أريد أي شيء، لا أنكر، أتمنى أن تملأ رحمي بولد، أتمنى أن أحمل منك بولد يشبهك، اسميه باسمك بكري، ولكن لن أفعل هذا، لا أريد أن أورّطك، أنا أحبك، أنا مستعدة للتخلّي عن كل شيء لأجلك، لا أريد أكثر من أن تحبّني، أنا منحتك كل شيء، عقلي وقلبي وروحي وجسدي، أخشى أن تكون أخذت فقط جسدي، ألم تشعر بعواطفي، ألم تدرك مدى حبي لك ...".[36]

إن الرواية تضع المتلقي أمام الآثار السلبية للظلم في نفس الإنسان؛ فالشعور بالظلم يرهق النفس، ويؤدي إلى الحسرة والمرارة والقهر، وقد يؤدي إلى اضطرابات نفسية، ولا سيما حين يجد الإنسان نفسه مغلوبا على أمره، وغير قادر على رد الظم عن نفسه.

2.3. الكراهية

الكراهية لغة: ما أكرهك غيرُك عليه.[37] أما اصطلاحا، فهي مشاعر سلبية تؤثر على تصرفات البشر وما يصدر عنهم، وتختلف من شخص لآخر، وتنشأ نتيجة تعارض الشيء المكروه مع حاجات الفرد ودوافعه ومعتقداته.[38]

وتبرز الكراهية لدى الشخصيات في الرواية بوصفها نتيجة طبيعية للظلم الحاصل عليها، وقد تكرر لفظ الكراهية ستا وثلاثين مرة أغلبها في صيغة الفعل الماضي (كرهت) وصيغة الفعل المضارع (أكره)، وهذا دليل واضح على حجم المعاناة

---

[34] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 7.

[35] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 89.

[36] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 86.

[37] الفيروزآبادي، "كره"، 1252.

[38] عبد الله العمرو، "ثقافة الكراهية وصلتها بالثقافتين الإسلامية والغربية"، *مجلة العلوم الشرعية* 34 (محرم 1436هـ)، 350.

التي عاشتها شخصيات الرواية وولدت عندها الكراهية. وهشام المحاسب أكثر الناطقين بهذه الكلمات، فقد نطق بها سبع مرات في مقطع صغير، عبّر فيه عن كرهه لكل شيء في حياته بسبب هشام المدير، يقول: "أنا كرهت حياتي، أنا، أنا، أنا رميتها، كرهت الحديقة والورود كرهت زوجتي، كرهت نفسي، زوجتي وردة بنفسج، وأنا كرهتها، شقتي تطلّ على الجنة، وأنا كرهت الشقة والجنة والدنيا كلها، حتى جاري كرهته، فردة الحذاء هذه هي أنا، المدير، يا أمي، جعلني أكره كل شيء".[39]

إن قوّة كراهية هشام المحاسب لهشام المدير دفعته إلى تمني قتله شر قتلة، يقول: "أتمنى أن أحز عنقه بالسكين التي أمامه على المنضدة ولكنها سكّين غير حادة، يفتح بها الرسائل وأطراف الجرائد، لا بأس، هي أشد إيلاماً له".[40]

لقد سيطرت هذه الكراهية على حياته كلها، وحين لم يجد فائدة من طول أمد حياته قرّر الانتحار، وكأنه بانتحاره هذا يستجيب للحل الذي اشار إليه فرويد بقوله: "وماذا نجني أخيرا من طول أمد الحياة، إذا كانت هذه الحياة عينها ترهق كواهلنا بأعباء ومشاق لا تقع تحت حصر، وإذا كانت فقيرة بالأفراح، غنية بالآلام، إلى حد نرحب معه بالموت بوصفه خلاصا سعيدا؟".[41]

يبدو الحل الذي لجأ إليه هشام المحاسب يتماشى مع نزعة عدوانية فطرية لدى بني البشر، تدفعهم نحو التدمير كما يرى فرويد.[42] فسيطرة هذه النزعة على نفسه دفعته إلى الفكر التدميري الذي كان موجها في البداية نحو الخارج، الذي يتمثل بهشام المدير بوصفه السبب الرئيسي في معاناته، بيد أنه لم يستطع بلوغ هذا الهدف، فأعاد توجيه ذلك الفكر نحو نفسه، وأنهى حياته بالانتحار.

ولدى بكري الشعور نفسه إزاء هشام مغتصب حقه والمتسبب في موت أمه، فهو يكرهه ويكره سبحته؛ لأنه سبب شقائه، وشقاء أمه، وجدته، وحياة كل من عرف وأحب، وحياة كل من حوله.[43] إن هذه الكراهية دفعت بكري إلى الشك بعلاقة هشام المدير بانتحار هشام المحاسب، يتساءل: "هل أرسل هو إليه مَنْ خنقه، ثم علّقه في الحبل؟!".[44]

وثمة مظهر آخر للكراهية في الرواية، لكن دافعها مبهم وغير واضح، وهي كراهية بكري لمديره أكرم في مؤسسة البريد؛ فرغم احترام وتقدير المدير أكرم له وثقته به، وتعامله معه بلباقة واحترام، ومشاورته في العمل، وتقديم النصح له، بالإضافة إلى ترشيحه لموقع مهم في مكتب البريد، ومحاولته غير مرّة دعوته لزيارته بعد إحالتهما إلى التقاعد، غير أن بكري يكرهه، يقول: "لا أعرف لماذا أكرهه، ليس سيئاً، ليس مخطئاً، هو يقوم بواجبه، هو على صواب، ولكن أكرهه، أكره عمله، أكره جلابيته البيضاء، ولا أعرف إن كان حقيقة قد ارتدى جلابية بيضاء؟، أكره نظارته السوداء، الأمر لا يتعلق بعقل ولا منطق، يتعلق بمزاج".[45]

ويبدو أن اللذة التي كانت تبدو على المدير أكرم في تطبيقه للقانون هي التي دفعت بكري إلى كراهيته، يقول بكري: "تطبيق القانون يا صديقي لم يعد مسؤولية ولا أمانة، أصبح لذة يمارسها من بيده تطبيق القانون، يشعر في تطبيقها بقوته

---

[39] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 27-28.

[40] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 22.

[41] فرويد، *قلق في الحضارة*، 40.

[42] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 286.

[43] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 7.

[44] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 110.

[45] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 73.

ويحقق بها ذاته، يتمترس خلف القانون بدعوى تطبيقه، والقانون بعد ذلك يضعه القوي، المنتصر، المغتصب، يعدّله أو يفسِّره كما يشاء، أو يخرقه".[46]

ولم يكتف بكري بكراهية هاتين الشخصيتين في الرواية، بل كان يكره أيضا الأشياء المتعلقة بهما؛ ككراهيته للسبحة الكهرمانية التي يحملها هشام المدير، وللنظارة الطبية السوداء لأكرم وجلابيته البيضاء.

كما يكره الحكم والمواعظ والخلاصات، ويكره اسمه، فقد كان يحب أن ينادى بكرا بدلا من بكري. كما كره في فترة ما أباه، حين ظنه رأسماليا مغتصبا لحقوق العمال ويمتص دم العمال، حتى أنه تمنى موته، وذلك حين كان يقرأ لأصحاب الفكر الاشتراكي في مرحلة شبابه، يقول: "وفي الشباب قرأت ماركس ولينين، قرأت فرويد وسارتر، مرة أتقمص هذا وأخرى أقلّد ذاك، حتى إنني في الشباب وضعت قبعة مثل جيفارا، وعلقت صورة لينين في صدر غرفتي، واشتريت سيكاراً فخماً وقلدت كاسترو، وأنا في أوائل المرحلة الثانوية، مع المراهقة، كنت أظن أبي رأسمالياً، كرهته، تمنيت موته، قلت هو ربّ عمل، يمتصّ دم العمال ... ثلاث وعشرون آلة نسيج صغيرة قديمة تعود إلى عام 1950 حسبتها من حق العمال، هم المالكون الحقيقيون لها، من حقهم أن يستولوا عليها، هكذا قرأت في الكتب، طبَّقتُ ما قرأتُ على أبي، رأيت أبي أكبر رأسمالي...".[47]

بعد تتبع مشاعر الكراهية لدى كل من بكري وهشام المحاسب في الرواية يمكن القول إن كراهيتهما لهشام المدير تبدو منطقية ومبررة لوضوح أسبابها، وهي نتيجة منطقية للظلم الذي تعرض له كلاهما، بيد أن أسباب كراهية بكري للمدير أكرم تبدو ضبابية غير واضحة للمتلقي، وهو ما صرح به بكري صراحة؛ فكراهيته له لا تتعلق بعقل ولا منطق. ومع هذا يستطيع الدارس أن يعثر على إشارات تقود إلى تفسير مقبول لهذه الكراهية، هو أن بكري يكره الأذى عامة، سواء أكان له أو لغيره من الناس، وكراهيته للمدير أكرم بسبب الأذى الذي كان يلحقه بالناس المتعاملين معه بحجة تطبيق القوانين.

3.3. الحب

الحب لغة: الوداد.[48] أما في الاصطلاح فهو "الشعور بالتعلق بشخص أو بشيء ما، وهو ظاهرة نفسية انفعالية ناجمة عن تأجج الإحساسات والمشاعر، ذاك الذي يطلق عليه اسم العاطفة".[49]

وثمة نوعان للحب عند فرويد؛ يطلق الأول على العلاقة بين الرجل والمرأة بداعي حاجاتهما الجنسية، أما الثاني فيطلق على العواطف الإيجابية التي تقوم ضمن نطاق الأسرة بين الأهل والأولاد، بين الإخوة والأخوات. ويميل فرويد إلى تسمية النوع الثاني الحب المكفوف من حيث الهدف، أي محبة.[50]

وحاز الحب بنوعيه الجنسي والمكفوف حسب تعبير فرويد على اهتمام في الرواية، وأخذ دورا مهما في تحريك أحداثها؛ فشخصية بكري التي تعد إحدى الشخصيّتين الرئيسيتين في الرواية تنطوي على كثير من حبّ للمرأة، فقد أحبّ الأنثى

---

[46] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 72.

[47] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 26.

[48] الفيروزآبادي، "حبب"، 70.

[49] جلال الدين سعيد، "حب"، *معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية* (تونس: دار الجنوب للنشر، 2004)، 143.

[50] فرويد، *قلق في الحضارة*، 59.

بجميع نماذجها في الرواية، أحبّ الأنثى الزوجة، والعشيقة، والطالبة، والجارة، والجدّة، والطفلة، وتعاطف مع هذه النماذج كلّها، ووجد لها مبرّرًا لكل أخطائها.

أحب بكري نوال وقبل بشروطها كلها ليتزوج بها؛ فقد قبل أن يعيش في شقتها الصغيرة رغم ملكه لبيت كبير وحديقة جميلة، وقبل أن يرعى ابنتها ليلى، وأن يتخلى عن الأولاد رغم عدم وجود ولد منه، وأخلص لها، كما أخلصت له أيضا. إن مشاعر الحب هذه هي التي أشعرته بالأمن والطمأنينة بجوارها، يقول: "عشر سنوات عشتُها مع نوال. رعاية، وعناية، هي لي كالأم، وأنا لها كالأب، عطف وحنان ورعاية. هي لي الزوجة، وأنا لها الزوج، هي لباس لي وأنا لباس لها، كما قال المولى تعالى".[51]

وكان قد أحب نجوى قبلها، وعرضت عليه الزواج بشرط مرافقتها إلى المملكة حيث ستذهب للتدريس هناك، وقد فكر بكري بقبول عرضها، والتخلي عن حياته في وطنه، وعمله، ومقاضاته لمغتصب حقه، يقول: "هي في الثانية والعشرين، وأنا في الخامسة والثلاثين، جننت بها، تفجَّرت كلّ قواي، عشقتُها، عشقتُ حركتها غنجها سمرتها، رأيت فيها السفر والأحلام والحب، وكدت أوافق على السفر معها".[52] لكنه ما سافر معها؛ فثمّة عوائق كثيرة منعت سفره معها، ودفعته للتخلي عن حبه لها.

ويبدو حبه المكفوف على درجة عالية من السمو؛ فحبه لأمه يتشح بهالة قدسية، يقول عن أمه: "لو بعث الله امرأة نبياً أو رسولاً لبعثها هي، ولكن الله لم يبعث امرأة نبياً أو رسولاً، ولكنه خلق نساء صالحات تقيّات، امرأة فرعون، زوجة زكريا، امرأة عمران، السيدة مريم، السيدة خديجة، السيدة عائشة، السيدة فاطمة".[53] كما يبدو محبا لجدته متعلقا به، ولكثرة تعلقه بها كانت كثيرا ما تزوره في أحلامه بعد موتها. وكذلك أظهر حبا عظيما لطفلة جاره هشام المحاسب.

والحقيقة أن بكري يبدو متعاطفا مع كل الشخصيات الأنثوية في الرواية، بالإضافة إلى تعاطفه مع الشخصيات الذكورية المظلومة، كأبي محمود حارس العمارة، وجاره هشام. وقد أبدى بكري في مراحل حياته المتأخرة ميلا واضحا إلى القيم النبيلة التي تنبثق عن الحب عادة، وخاصة التجرد من المنفعة، والانجذاب إلى القيم المثالية، والزهد في الأشياء المادية والارتقاء إلى مرتبة سامية من المحبة الروحانية، وما يدل على ما نذهب إليه قوله:[54]

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجّهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

[51] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 67.
[52] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 60.
[53] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 22.
[54] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 22.

وتبدو مشاعر الحب تملأ قلب هشام المحاسب لزوجته رغم الخلافات معها، يقول في نفسه: "أحنّ إلى زوجتي، وأشتاق، وهي فوق، أتمنى لو أضمّها إلى صدري، لو أنام على صدرها، أستشعر دفئها الناعم، وأتحسّس نبضها الهادئ، كم أنا محتاج إليها".[55] ويعبر عن الحب المتبادل بينه وبين زوجته في خطابه لأمه: "هذا ما يؤلمني يا أمي، أحببتها، وأحبها، وما أزال أحبها، وهي تحبّني".[56]

وروضة كذلك يطغى حب بكري ليس على قلبها فحسب، بل على كيانها ووجودها، فتندفع للتصريح له بهذا الحب، تقول: "أنا صادقة معك، أنا أحبك، لا لشيء، أحبك، بالجسد والروح والعقل، بكل قواي، يمكن أن نلتقي هنا إلى الأبد، ...".[57]

إن المرأة في الرواية عامة أكثر حبا وإخلاصا لهذا الحب من الرجل؛ فجدة بكري، وزوجته نوال، وأم هشام، وزوجته امتلأت قلوبهن بالحب وبإخلاصهن لهذا الحب، وكن يفكرن بالعطاء بلا مقابل، وبجلب المنفعة للغير فحسب. فقد كانت جدة بكري تمنح الدفء لحياته بسبب حبها الكبير له، ولهذا يفتقدها بكري بعد مماتها، فتأتيه في الأحلام. وأم هشام المحاسب نسخة ثانية عن جدة بكري في حبها لابنها وللآخرين، وفي السعي إلى إصلاح أفراد مجتمعها وإسعادهم. وكذلك زوجة هشام المحاسب التي لولا قلبها المليء بالحب لما صبرت عليه، ولما قبلت العودة إلى البيت بعد قرارها الرحيل، لكن حبها لزوجها وطفلتها وبيتها هو الذي دفعها إلى البقاء.

4.3. الخوف

الخوف لغة: الفزع.[58] أما اصطلاحا فهو "توقع حلول مكروه أو فوات محبوب".[59] وعند الفلاسفة: هو انفعال نفساني يعرض عن تصور شر قريب الوقوع، وله دراجات متفاوتة الشدة أدناها الخشية وأعلاها الذعر، وشدته تكون عادة متناسبة مع عظم المكروه المتوقع.[60]

إن معنى الخوف بمعناه اللغوي والفلسفي واضح لدى الشخصيات في الرواية؛ فبكري الذي أحب المرأة وتعاطف معها، ابتعد عنها أحيانا بسبب الخوف، والدافع إلى خوفه هذا هو العادات والتقاليد الشرقية التي تربى عليها. فتلك العادات منعته من الاستمرار في علاقته مع روضة رغم حبه لها وتعلقه بها مدة ستة أشهر كاملة؛ لهذا نراه يهرب منها إلى غير رجعة بعد اكتشاف علاقتها بمدير البنك عبد القادر إسماعيل، يقول: "وأنا واحد من هذا المجتمع، خفت من عبد القادر، خفت من المجتمع، خفت من روضة، خفت من نفسي، هربت".[61]

يرى فرويد أن الأنا هو ذلك الجزء من الهو الذي تعدل بنتيجة تأثير العالم الخارجي فيه بواسطة جهاز الإدراك الحسي–الشعور. وهو يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي إلى الهو، ويحاول أن يضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسيطر على الهو،

[55] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 7.
[56] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 27.
[57] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 89.
[58] ابن منظور، "خوف"، 2: 1290.
[59] الجرجاني، "خوف"، 90.
[60] جميل صليبا، "خوف"، *المعجم الفلسفي* (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982)، 1: 545.
[61] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 90.

ويتجلى مبدأ الواقع في أن يحتمل المرء التوتر وينتظر تفريغ الطاقة حتى يتم إحضار الموضوع الذي يلبي الحاجة، ويتضح من خلال ذلك أن هذا المبدأ لا يلغي اللذة التي ينشدها، بل يسعى إليها بشكل واقعي ومناسب.[62]

إن مشاعر الخوف لدى بكري يمكن تفسيرها وفق قول فرويد السابق بأن الأنا لدى بكري أرغمه على اتخاذ هذا القرار بضغط الأنا الأعلى رغم دافع الهو، فثمة صراع جرى بين الهو مدفوعا باللذة وبين الأنا مدفوعا برقابة الأنا الأعلى، الذي يسعى دائما إلى توافق المرء مع واقعه الذي يعيش فيه، نتج عنه انتصار للأنا على حساب الهو، ونتج عن هذا الانتصار هروب بكري وابتعاده عن روضة.

ويعترف بكري بأنه وروضة ليسا مذنبَين، ويندم في أواخر حياته على ضياعها ، يقول: "أضعتها، أضعت حياتي. ثم فكرت، لا، ليس ذنبي أنا، وليس ذنبها هي. أنا أصدق كل ما قالت. عنها أشاع عبد القادر أنها عشيقته، هو لم يُلاحق، ولم يُحاسب، لأنه الرجل، لأنه المدير، لأن له علاقاته، لأن المجتمع يسمح للرجل بكل شيء، ولا يسمح للمرأة بشيء".[63]

ويمكننا أن نفسر سبب عدم تصريح بكري باشتهائه لدلال بخوفه من المجتمع أيضا؛ فالأنا الأعلى بحسب فرويد الذي أرغمه على الابتعاد عن روضة، دفعه أيضا إلى كبت رغبته الجنسية بدلال، وعزوفه عنها؛ "فالعزوف في الأصل نتيجة القلق الذي توحي به السلطة الخارجية؛ فالإنسان يعزف عن إشباعات معينة حتى لا يخسر حب تلك السلطة".[64]

وخوف بكري على مصالحه الشخصية هو الذي منعه من السفر مع نجوى إلى المملكة، فكان عليه أن يبقى حرصا على مصالحه المتمثلة في استمراره بوظيفته واستمراره في متابعة الدعاوى ضد هشام مغتصب حقه.[65] وهذا يتسق أيضا مع التفسير السابق لمشاعر الخوف، ويعني أن الأعلى لدى بكري لها الغلبة في نفسه، فهي دائما تدفع الأنا إلى كبت رغبات الهو وتأجيلها.

ويبدو بكري خائفا من الموت لتقصيره في عبادة ربه، ورغم تصريحه بأنه لا يخاف الموت؛ لأنه حق، فهو في الحقيقة يخافه؛ لأنه طريق المرور للقاء الله عز وجل، يقول في حوار داخلي في نفسه:

> "يا إلهي، ليت لي مصحفاً لأقرأ فيه الآن، سامحني يارب، أنا عبثُ على هشام المدير وضعَه مصحفاً أمامه في السيارة وراء المقود، وأنا ليس عندي مصحف لأقرأ فيه الآن؟! ماذا لو كانت منيّتي قد حانت؟ أنا لا أخاف الموت، لا بد من الموت، هو انتقال من هذه الدار، دار الشقاء والفناء، إلى دار النعيم والبقاء، هو لقاء مع وجه الله تعالى، ولكن ويلي؟! كيف سألقاه، وأنا ما صمت ولا صليت، ولا حججت ولا زكيت، ولم أقرأ كتابه الكريم؟ أمس انقضى، اليوم مضى، العمر كله راح، ماذا جنيت في حياتي؟ ماذا قدمت لنفسي؟ ويلي؟!".[66]

ويمكن القول إن الخوف سمة بارزة في شخصية بكري، فهو يحرص على سمعة جيدة تضعه في علاقة اجتماعية مرضية. إنه متمسك بعادات اجتماعية لا يقوى على الانفكاك منها، وحين يحاول الهو دفعه إلى تحقيق رغبة غريزية لا تتوافق مع تلك العادات سرعان ما يصطدم برادع قوي من الأنا الأعلى، وغالبا ما تمثل بجدته التي تأتيه في الأحلام ناصحة له ومرشدة. إن

---

[62] ينظر عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 283.

[63] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 90.

[64] فرويد، *قلق في الحضارة*، 94.

[65] ينظر محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 63.

[66] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 57.

هذا الحرص دفعه سنين طويلة إلى الخشية من الاستماع إلى أغنية أم كلثوم التي كان يسمعها مع روضة؛ لأنه يخاف ذكراها، كما أنه لم يجرؤ على تقصي أخبار دلال، يقول معترفا بجبنه: "مر شهر، شهران، ثلاثة، مرّ عام، مرّ عامان، دلال لم تتصل. لم أعرف عنها أي شيء. لم أسأل، لم أحاول المعرفة. لعلي لا أريد أن أعرف. أعترف، أنا جبان، أناني، سلبي، لا أحب المغامرة".[67]

ونلمح الخوف لدى جاره المحاسب هشام الذي خاف باستمرار من فقدان عمله وطرده إذا لم يستجب لرغبات مديره في تزوير دفاتر الحسابات في المعمل. يقول في حوار مع بكري: "إذا لم أنفِّذ فأنا أول المسرّحين، وسيطردني من الشقة، أنت تعرف، الشقة التي أسكنها هي ملكه، أجّرني الشقة بأجرة زهيدة، وأنا أعيش فيها مع زوجتي وابنتي منذ سنة ونصف السنة".[68]

وهو يدرك مدى نفوذ هشام المدير وسلطته، ولهذا يخاف من تنفيذ فكرة أمه التي اقترحت عليه تصوير السجلات، وتقديم شكوى ضده، يقول: "ولكن يا أمي هي عشرة سجلات يومية، لا يمكن حملها، ومكتب التصوير يمكن أن يخبر المدير، أصدقاؤه، أعوانُه، في كل مكان، هو سلطة يا أمي، سلطة بكل معنى الكلمة، أنت لا يمكن أن تعرفي، حتى جاري الكريم، لا يمكن أن يقدّر مدى نفوذه".[69]

إن مصدر الخوف لدى هشام المحاسب ذو منشأ نفسي يتسق مع قاعدة رؤية "الأنماط الأصلية أو الأولية" التي تنتقل بالفطرة عبر الأجيال، وتؤلف جزءا من اللاوعي الجمعي عند يونغ. فالخوف عنده ذو منشأ نفسي يرتبط بتجاربه الحياتية؛ فهو يتوقع عدم عجزه عن الإنفاق على أسرته إذا طُرد من عمله. إن الإنفاق مسؤولية الذكر وفق العادات الاجتماعية الشرقية التي تنظم العلاقة بين أفراد الأسرة، وهشام المحاسب يدرك هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه، وهو ما يفسر سبب الخوف لديه؛ فالطرد يعني فقدان العمل، وهو بدوره يعني فقدان المورد المادي الوحيد التي يعتمد عليه هشام المحاسب في تدبير شؤون أسرته.

وتبدو المرأة في الرواية خائفة على ابنها وزوجها وحفيدها، وحبيبها؛ فأم هشام المحاسب تتدخل للإصلاح بين ابنها وزوجته وتقدم له المساعدة المالية خوفا عليه، وزوجة بكري تخاف عليه حين تراه في وضع نفسي غير طبيعي، وكذلك الجدة التي تخاف على حفيدها بكري، وروضة لم تصرح بمشكلتها لبكري خوفا من خسارة حبها له، يقول بكري مستغربا: "كانت أول صدمة لي في الحب، والحياة، والجنس. لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تصارحني؟".[70]

لتفسير هؤلاء النساء في الرواية نستطيع أن نستعين بفهم ليفين مؤلف مدرسة "المجال النفسي" للدوافع. إن الخوف هنا نتج عن علاقة تأثر وتأثير بين هؤلاء النساء والمجتمع الذي يعشن فيه؛ فأم هشام ترى أمام أعينها حال ابنها وأسرته غير الطبيعي، فينعكس هذا الحال خوفا في نفسها، فتخاف أن تصاب هذه الأسرة التي هي أسرتها أيضا بضرر؛ لهذا تسعى بما استطاعت أن تقدم مساعدة تحفظ هذه الأسرة. وهذا التفسير يشبه ما يمكن قوله عن خوف زوجة هشام على أسرتها، وخوف جدة بكري عليه. وكذلك دافع الخوف لدى زوجة بكري تجاه زوجها.

---

[67] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 107.

[68] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 7.

[69] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 29.

[70] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 85.

أما دافع الخوف لدى روضة فيبدو مختلفا؛ إنه يتعلق بمبدأ التعويض وتجاوز عقدة النقص بحسب فهم آدلر. فروضة وجدت في بكري ما يحقق لها تأكيد الذات في المجتمع بوصفها امرأة لها حق في الحب والزواج وتكوين أسرة، لكن اكتشاف بكري لقصتها مع مدير البنك دفعها إلى الخوف من هروبه منها؛ لأنها ستفقد حينئذ حلمها في تأكيد ذاتها. وهذا ما حدث لها، فقد غادرها بكري إلى غير رجعة حين علم بقصتها.

5.3. القلق

القلق لغة: الانزعاج، وعدم الاستقرار في مكان.[71] ويعني اصطلاحا: حالة من التوتر الشامل والمستمر لتوقع تهديد فعلي أو رمزي قد يحدث، يصحبه خوف غامض وأعراض نفسية واجتماعية.[72] أما عند الفلاسفة فإن القلق يعني: الشعور بالضيق أو الانزعاج الذي يسبق الفعل الإرادي، وله درجتان: أولاهما درجة الانزعاج وعدم الرضا، وثانيتهما درجة الجزع والكرب.[73]

ويرى فرويد أن ثمة مصدرين للقلق الذي يصيب الأنا: مصدر داخلي، وآخر خارجي، ويميز ثلاثة أنواع للقلق: القلق الواقعي، أو الموضوعي، ومصدره العالم الخارجي، والقلق الأخلاقي، ومصدره الأنا الأعلى، والقلق العصابي ومصدره الهو.[74]

ويبدو القلق صفة عامة يتصف بها هشام المحاسب في الرواية، والسبب الظاهر عدم راحة نفسه بسبب مديره من ناحية، وفقره من ناحية أخرى، يصفه بكري بأنه "هادئ وديع مطيع، في الظاهر، وعلى السطح، ولكنه في الداخل والعمق قلق جداً ومتوتر وحاد المزاج، كأنه بركان، سطحه غابات ومروج وحول فوهته ثلوج بيضاء ناصعة، لكنه قد يقذف الحمم فجأة".[75] فعدم راحة النفس أدى إلى عدم استقرارها، كما أدى إلى تقلب مزاجه، كأنه شخصيتين مختلفتين، يقول في حوار مسترجع مع زوجته:

> "مرة قالت لي: أنت مثل الدكتور جيكل ومستر هايد، حكت لي قصة رجل صاحب شخصيتين مختلفتين اختلاف الليل والنهار، بل إن شخصيته في النهار تختلف عن شخصيته في الليل، حقيقة أنا كذلك. أرجع من المعمل، وأنا فحمة أشتعل تعباً وغضباً، من المعمل ومن المدير، أنطفئ في جسدها. ثم سرعان ما أشتعل غضباً، ولا أعرف كيف أنطفئ".[76]

إن هذه الحالة بحسب فرويد تعود إلى عدم إشباع رغبة ما لدى هشام المحاسب، وربما هي الرغبة في الانتقام من هشام المدير الذي يعد السبب الرئيسي لقلقه واضطرابه. وعدم إشباع هذه الرغبة أدى إلى كبتها في لا وعيه، واستمرار تأثيرها عليه، فنجم عنها اضطرابات في سلوكه غير معروفة السبب أو المصدر.[77]

ويبدو القلق أيضا في بعض مواقف بكري، ولا سيما موقفه من الجلابية البيضاء، فمرة يقول أكرها ومرة يقول أحبها: "هل أتحدث عن الجلابية البيضاء التي لا أحبها، بل أحبها وأكرهها؟؟".[78]

---

[71] ابن منظور، "قلق"، 5: 3726.

[72] عبد الحميد الشاذلي، *الصحة النفسية وسكولوجية الشخصية*، ط2 (القاهرة: دار المكتبة الجامعية، 2001)، 124.

[73] صليبا، "قلق"، 2: 199.

[74] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*،1: 282.

[75] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 4.

[76] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 7.

[77] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 263.

والحقيقة أن الجلابية البيضاء تقترن بمشاعر الحب والكراهية في الوقت نفسه لدى بكري؛ فهي هدية نجوى التي أحبها، لكن حبّه لها انعكس كراهية لأنها لم توافق على البقاء في الوطن مع بكري، وهي ستار ديني يتخذه ظالمو الناس ومستغليهم حين يلبسونها ويذهبون إلى المسجد متظاهرين بحسن الأخلاق.

إن مصدر القلق لدى بكري عصابي أخلاقي؛ فالهو يدفعه إلى حب الجلابية البيضاء؛ لأنها تقترن بالحصول على تحقيق رغبة جنسية، بيد أن الأنا الأعلى يدفعه إلى كراهيتها؛ لأن صاحبتها تخلّت عن الحب الذي ينتهي بالزواج بوصفه قيمة اجتماعية نبيلة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدفع الأنا الأعلى إلى حب الجلابية البيضاء بوصفها رمزا للطهر والنقاء والالتزام الديني؛ فهذا اللون يقترن بالزواج وإقامة الشعائر الدينية في المجتمع. بيد أن اقتران الجلابية البيضاء بشخصيات ظالمة في الرواية عملت على ستر عيوبها بارتدائها والذهاب بها إلى المساجد للصلاة، ولا سيما هشام المدير والمدير أكرم دفعت باتخاذ موقف مضاد تجاهها، ودفعت إلى كراهيتها.

ويبدو القلق أيضا على شخصية روضة بعد معرفة بكري بقصتها مع عبد القادر إسماعيل، يقدّم بكري حورا مسترجعا معها:

"تلقي بنفسها على الأريكة إلى جواري، تسند رأسها إلى صدري هنيهة، تنهض:
. أجبني، هل تحبني؟ ستة أشهر، لم تنطق بكلمة حب، سأعد فنجان قهوة، وإلى أن أرجع، فكر.
تمضي إلى المطبخ، تتأخر قليلاً، أحس بالخطر، أخشى أن تقدم على شيء ما، أنهض، أراها قادمة.
تقعد قبالتي، تستل من الخزانة علبة تبغ، تدخن، أول مرة أراها تدخن، ترشف قهوتها، أناملها ترتعش، تحاول السيطرة على نفسها، تتكلم بهدوء بهمس:
. سأحكي لك كل شيء، فقط أرجوك، اسمعني، عيّنني مديرة مكتبه، سنة كاملة وهو يعاملني بلطف وهدوء، ضمن أصول العمل، عملت عنده فور نيلي الشهادة الثانوية، مع دخولي إلى كلية الحقوق، شابة جامعية متفتّحة، أردت أن يكون لي حضوري، أن تكون لي شخصيتي، أبي يتعامل معه، هو مدير مصرف خاص ..."[79].

إننا هنا أمام قلق موضوعي مصدره العالم الخارجي، الذي تمثل هنا ببكري نفسه؛ فروضة لم تكن تشعر بهذا القلق من قبل، لكن معرفة بكري بقصتها هي التي سببت مشاعر القلق لديها، فبدت متوترة لا تكاد تستقر في مكان، نتيجة الضيق والانزعاج اللذين تشعر بهما.

ويمكن أن نفسر القلق هنا وفق فهم ليفين؛ فالقلق كان نتيجة العلاقات المتبادلة والمباشرة بين روضة وبيئتها في لحظة معينة، هي لحظة اكتشافها معرفة بكري بقصتها مع مدير البنك، هذا الاكتشاف أحدث توترا في نفسها، واستجر هذا التوتر قيامها بردّات فعل للتخلص من هذا التوتر، وتمثلت ردات الفعل هذه بعدم استقرارها بمكان وتدخينها وارتعاشها.

[78] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 59.
[79] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 86.

6.3. الحزن

الحزن لغة: "نقيض الفرح، وهو خلاف السرور".[80] أما اصطلاحا فهو "ما يحصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي".[81] ويعني عند علماء النفس: "ألم نفساني يغمر النفس كلها ... والحزن إما أن يحصل للنفس بالعرض لوقوع مكروه، أو فراق محبوب، وإما أن يحصل لها بالطبع لانطواء مزاجها على القلق والاضطراب".[82]

إن مشاعر الحزن تخيم على الجو العام للرواية؛ فبكري وهشام وزوجته حزينون، وهم صورة عن المجتمع الحلبي الذي انتشرت لوحة الطفل الباكي في كل ركن من أركانه: يقول بكري "قبالتي على الجدار لوحة الطفل الباكي، اللوحة الشعبية الرخيصة، حيثما ذهبت طالعتني، على الرصيف، عند الحلاق، في غرفة الانتظار عند الطبيب، لا أعرف لماذا يريدون للطفولة أن تبكي؟ لا أعرف لماذا يحبون الطفولة الباكية؟".[83]

إنها صورة هشام وهو صغير كما أوحي إلى طفلته: "تقول الطفلة هناء تعليقا على لوحة الطفل الباكي: "بابا وهو صغير كان يبكي".[84] وهو ما يراه بكري في شخصية هشام، يقول:

> "صدقتِ يا بنتي، ما مضى على معرفتي بوالدك غير سنة وبضعة أشهر، منذ سكنِهِ هنا فوق شقتي، حتى عرفته، نعم، هذه صورة والدك وهو طفل، وهذه صورته وهو شاب، وهذه صورته وهو رجل، وهذه صورته حتى آخر لحظة في حياته، والدك وُلِدَ وهو يبكي، وظل طول عمره يبكي، لا ينطق الأطفال إلا بالحق، صوتهم هو صوت الحق، الأطفال لا يكذبون".[85]

وسناء زوجة هشام تشعر بمرارة الحزن بسبب ما نتج عن خلافاتها مع زوجها، فهي عاجزة عن تقديم حل ينهي هذه الخلافات الزوجية، ويعيد الهدوء إلى أسرتها، فلا تملك حيال هذا الأمر إلا ذرف الدموع.[86]

وبكري نفسه حزين لفقدان حقه في المعمل، ولندمه على تفريطه بروضة التي أحبته، ولموت زوجته نوال التي كانت تؤنسه. ويبدو حزنه لفقدانه حب المرأة أعظم بكثير من حزنه على ضياع حقه في المعمل، وهو لا يجد شفاء لنفسه من الألم الذي يسببه حزنه لفقدان المرأة التي أحبته. ويلتقي المتلقي مع هذا الحزن في غير موضع في الرواية، يقول بكري في أحدها، يصف فيه مدى حزنه على فقدان زوجته نوال التي ماتت وتركته وحيدا: "كم تمنيت أن أموت على صدرها، ولكنها ماتت قبلي، ماتت وحدها، ماتت في الوقت الذي كنت فيه بحاجة إليها، والآن، في آخر عمري، أنا الآن إليها أحوج".[87]

ويصف فرويد هذا النوع من الأحزان بقوله: "فنحن لا نحمي أنفسنا من الألم أسوأ حماية ممكنة مثلما نحميها عندما نحب، ولا نعاني من تعاسة مطلقة لا شفاء لها مثلما نعاني حين نفقد الشخص المحبوب أو نفقد حبه".[88]

---

[80] ابن منظور، "حزن"، 2: 861.
[81] الجرجاني، "حزن"، 77.
[82] صليبا، "حزن"، 1: 466.
[83] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 43.
[84] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 43.
[85] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 44.
[86] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 40,
[87] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 34.
[88] فرويد، *قلق في الحضارة*، 31.

وثمة مشاهد حزن أخرى في الرواية، كحزن نوال على زوجها المحامي عند مرضه وبعد وفاته، يصفها بكري بقوله: "مرت على هذه الحالة ثلاثة أشهر، نال منها النحول، اصفرّ لونها أهملتْ مظهرَها ... وقبل أن أسألها عن مرضه أضافت وهي تجهش في البكاء: "سرطان في الدم"، وأسرعت بها إلى المستشفى. طلبت لها من المدير إجازة لأسبوعين، بعد شهر توفي زوجها ...".[89]

والحزن الذي بدا على روضة بعد معرفة بكري بقصتها مع عبد القادر إسماعيل مدير البنك، تقول في حوار مع بكري: "تصمت، تحبس الدموع، تهمس: عبد القادر حاول النيل مني فوق سرير الدولارات، أنا وهبتك نفسي في شقة غير مكتملة، أنا باب من غير زجاج، كسرني عبد القادر مرة، لكن أنت حطمتني".[90]

وقد ختم الروائي الرواية بمشهد حزين، يقول بكري: "مخيّلتي تمتلئ... حبلٌ مدلّى من السقف، تحته رزمة الجرائد، هشام بجسمه الصغير الناحل يتدلى بالحبل من عنقه داخل جلابيته البيضاء.... صورة الطفل على الجدار ممزقة... في الحديقة بقايا نارجيلة محطَّمة متناثرة قرب البنفسجات الناعمة الحزينة...".[91]

إن رغبات هذه الشخصيات لإثبات ذواتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه، وفق آدلر، وفشلهم في تحقيق هذه الرغبات سبب لهم هذه المشاعر الحزينة؛ فبكري خسر المرأة التي استطاع من خلالها أن يثبت ذاته، ونوال خسرت الزوج الذي كان مصدر قوتها في المجتمع، وروضة خسرت بكري الذي كان أملها في تكوين أسرة في المجتمع.

7.3. الاغتراب

الاغتراب لغة: النزوح عن الوطن.[92] أما بالمعنى النفسي، فهو "أن يشعر الإنسان بالوحدة وهو في وطنه، وبين أهله، وهذا النوع هو الصعب؛ لأنه يغرس في نفس الشخص عدم الاستقرار".[93] فالشخص الذي يشعر بالوحدة داخل بلاده لا بد أن يعاني الكآبة والقلق وعدم الاستقرار النفسي ما يشكل له أمراضا نفسية وعقدا، قد تجعل من حياته صعبة يتجرع فيها طعم المرارة؛ لأن الإنسان بطبعه اجتماعي، ويميل إلى إنشاء علاقات وصلات اجتماعية مع الآخرين من بني جنسه، وحين يجد نفسه وحيدا فلا بد أن يناله الشقاء النفسي؛ لذلك يرى هيجل "أن تحقيق الطبيعة الجوهرية للإنسان تستدعي استنطاق وجوده في بنية اجتماعية تتضمن أنساقا تتوافق وطموحاتها؛ لأن مجرد وجوده غير كاف، بل يتطلب التجاوز إلى ما هو أبعد؛ أي الاتصال والتفاعل الضروريين".[94]

إن الاغتراب الذي يؤدي إلى انفصال الذات عن عالمها الخارجي، وابتعادها عن محيطها، هو ذلك الاغتراب النفسي الذي يجعل صاحبه عاجزا عن التواصل مع محيطه الاجتماعي، غريبا عما يحيط به من أمور، يعيش في فراغ نفسي، ويعاني آلاما داخلية من الصعب التخلص منها، ويفقد الإحساس بالانتماء إلى المجتمع، الذي لم يستطع أن يحتويه.[95] والاغتراب النفسي "ينشأ عن التناقض بين الإنسان والعالم الخارجي، بين الواقع وبين الخيال، بين ما هو عليه وما يحلم به، بين ما

---

[89] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 65- 66.

[90] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 89.

[91] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 110.

[92] ابن منظور، "غرب"، 5: 3225.

[93] يحي العبد الله، *الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلول الروائية*، ط1 (عمان: دار الفارس للنشر و التوزيع، 2005)، 21.

[94] سامح بن خروف، *الاغتراب في رواية كراف الخطايا* (رسالة ماجستير، جامعة حاج لخضر في باتنة، 2011)، 47.

[95] قطر الندى برناوي، *البعد السيكولوجي في رواية أحلام مدينة*، 73.

يملكه وما يطمح إليه، بين العالم ونظام تفكيره، بين عالم الآخرين وعالمه الخاص، فينفصل المرء عن ذاته الإنسانية الحقة، أو عن طبيعته الجوهرية".[96]

يعاني بكري هذا النوع من الاغتراب، فهو يشعر بالوحدة والبعد عن مجتمعه رغم أنه يعيش بين ظهرانيه؛ لهذا نجده يختار العزلة، ويفضل العيش وحيدا في بيته مع حماماته البيض وحديقته. إن الحل الذي لجأ إليه بكري يتسق مع مفهوم "الشيخ الحكيم" الذي استحدثه يونغ بوصفه أحد مستويات النفس الإنسانية، ويرمز إلى حلم الإنسان وحكمته، وتغليب الواقع وإخضاع ما سواه من رغبات وحاجات لمعاييره.[97]

وتميز كارين هورني (ت. 1952)- وهي إحدى ممثلات الاتجاه السيكو- ثقافي في التحليل النفسي- انطلاقا من تحليلها لبنية الدافعية في علاقاتها مع المحيط الاجتماعي ثلاثة أنواع من الحاجات: الحاجة إلى الآخرين، والحاجة إلى معاداة الآخرين، والحاجة إلى الابتعاد عن الآخرين، وترى أن في كل نوع من هذه الأنواع عنصرا من العناصر الرئيسية للقلق الأساسي يسيطر على تركيبه ويتغلب على العناصر الأخرى. ففي النوع الأول يتغلب الضعف الإنساني على بقية العناصر. وفي النوع الثاني تكون العدوانية هي الأقوى. بينما يتفوق الانسحاب والعزلة على غيرهما من العناصر في النوع الثالث.[98]

إن الحاجة إلى الابتعاد عن الآخرين هي التي تفوقت على غيرها من الحاجات في نفس بكري، ويعود هذا إلى أثر الظلم الذي تعرض له من مغتصب حقه هشام المدير، والمجتمع المتمثل بالقضاء مشارك في هذا الظلم؛ لأنه لم يعد إليه حقه رغم كثرة شكاويه. إن الظلم أنتج الكراهية، وهي بدورها أنتجت العزلة، فهو لا يزور أحدًا، ولا يأتي إليه إلا جاره هشام، ويأتيه الخادم أبو محمود لتلبية حاجاته، فهو يعيش في عزلة شبه تامة عن المجتمع. إن بكري يدرك صعوبة الحياة التي يعيشها، فهو يشعر أن حياته ليست بحياة؛ لهذا يشتهي أن يحيا كالناس، وأن يكون له زوجة مثلهم.

والحقيقة أن بكري اختار الانكفاء عن الآخرين هربا من الألم الذي تسببه له العلاقة بهم؛ إذ إن الاختلاء والانزواء الإرادي والابتعاد عن الآخرين يشكّل "التدبير المباشر للاحتماء من الألم الناشئ عن الاحتكاكات الإنسانية ... فحين يتهيب المرء من العالم الخارجي، فلا سبيل له إلى الاحتماء منه إلا بالتنائي والابتعاد في أي شكل كان- على الأقل إذا كان يريد تذليل ذلك الإشكال وحده".[99]

إن الحالة النفسية لبكري تدفعه إلى الغربة حتى في بيته، فهو يرى أن كل شيء للمدير المغتصب، فليس له بيت ولا وطن، يخاطب أم هشام المحاسب في منولوج داخلي معبرا عن شعور عظيم بغربته: "ليس بيتها أيتها الأم، أيتها الجدة، ولا بيته، ولا بيتي، هو بيت المدير، نحن لا بيت لنا، هل أبالغ فأقول إنه لا وطن لنا أيضاً؟ الوطن كله له؟ أنت حتى الآن لم تعرفي كل شيء أيتها الجدة الأم".[100]

---

[96] ابن خروف، *الاغتراب في رواية كراف الخطايا*، 17.

[97] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 306.

[98] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 358.

[99] فرويد، *قلق في الحضارة*، 24.

[100] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 41.

ويعبر في موضع آخر في الرواية عن غربته بقوله: "كلية الحقوق هي كليتي، وفيها تخرجت، والأساتذة فيها هم أساتذتي، وإن كان فيها جيل جديد من الأساتذة لا أعرفهم، ولكن أنا بعيد عن هذه الأجواء، وأشعر بالغربة، وأنا في شبه عزلة عن العالم، لا أزور أحداً، ولا أحد يزورني".[101]

يبحث بكري عن الخلاص من هذه الغربة التي ألمت به، فلا يجده إلا بطوفان جديد، كالذي حدث في عهد نوح عليه السلام، يغرق الدنيا ولا يبقي فيها ولا يذر: "لا أعرف، لا خلاص إلا بالطوفان، طوفان جديد، ونوح جديد، وتظل زوجته وولده من الغارقين، قد يغرق هذه المرة نوح نفسه، فليغرق، وعلى الدنيا السلام، يبدو لن يكون على الدنيا السلام إلا بالطوفان".[102]

وهشام المحاسب يشعر بالغربة النفسية أيضا بسبب الظلم والقهر والخوف، ظلم مديره، وقهر الفقر، وخوفه من الطرد من العمل؛ لهذا نجده بائسا يائسا من الحياة ما عاد يقوى على البقاء فيها؛ إنه يريد لهذه الحياة أن تنتهي بطريقة مختلفة عن طريقة بكري، فيختار نهايتها بقنبلة ذرية كالتي ضربت هيروشيما في الحرب العالمية الثانية، يقول: "صدقت يا أمي، نارجيلتي الحقيقية فوق، لا هذه، ولكن سأحطم هذه النارجيلة وتلك النارجيلة، ما عادت تنفع، لا هذه ولا تلك، أنا ما عدت أعرف كيف أعيش لا مع النارجيلة ولا المرأة ولا الجار، ولا مع نفسي، ليت الدنيا كلها تخرب، ليت قنبلة ذرية مثل قنبلة هيروشيما تدمر العالم كله. لا جدوى".[103]

إن كلا بكري وهشام المحاسب سئما الحياة، وأرادا نهاية لها، فكلاهما لا يجد حلا لمشكلاته إلا بالموت، ويختارا الموت للجميع. وهذه يعني أن رؤيا تدمير العالم بارزة في الرواية، فلا خلاص إلا بها كما يرى بطلاها بكري وهشام.

8.3. الأمل

الأمل لغة: الرجاء.[104] أما اصطلاحا فهو "تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل".[105]

يتساءل القارئ: هل الخلاص من معاناة الشخصيات في الرواية ينحسر في التدمير أم أنها تضمنت أفكارا أخرى تبعث على الأمل في حياة أفضل؟

الجواب: تضمنت الرواية أفكارا تعبث على الأمل في حياة أفضل. فالرواية تصرّح بشكل واضح أن الأمل موجود بقوّة، وثمّة عاملان رئيسيان لتحقيق هذا الأمل: الأوّل: عامل الزمن، وهذا العامل تحقّق وبعضه، وبعضه الآخر في طور التحقيق. فقد ذكرت الرواية على لسان أم هشام أن الزمان يتغير، وكل شيء يتغير، لا أحد يعيش إلى الأبد، ولا شيء يستمر إلى الأبد، فالتغير هو قانون الحياة، ولكل ظالم نهاية، ولا بد بعد الضيق من فَرَج.[106]

---

[101] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 98.

[102] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 56.

[103] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 34.

[104] ابن منظور، "أمل"، 1: 132.

[105] صليبا، "رجاء"، 1: 609.

[106] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 32.

تريد الرواية أن تقول إن دوام الحال من المحال، فإذا ما تغيّر الزمن فلا بد أن تتغير الظروف الاجتماعية، والتي بدورها تغيّر منظومة المجتمع. فأمور الحياة لا تبقى على حالها، بل لا بد أن يصيبها التغيير. كما تؤكد الرواية على زوال الظلم، والذي بدروه يؤدي بالضرورة إلى تحقيق العدل الاجتماعي، الذي ينعكس راحة وطمأنينة على أفراد المجتمع.

إن الزمن يفعل فعله في الحياة دائما، وقد حقّق شيئا مهما في الرواية، فقد انتشرت الشبكة العالمية، وأصبح العالم مفتوحا، وما عادت الأخبار تُقدّم فقط من خلال الجرائد التي تصدرها الحكومة بالتعاون مع حلفائها من رجال الأعمال والاقتصاد، وتؤكد رأيا واحدا وموقفا واحدا يتسق مع القائمين على الأمر. لقد أعلن بكري مقاطعته لتلك الجرائد، وما عاد يقرؤها مطلقا، بل يبحث عما يريد من أخبار ومعلومات في الشبكة العالمية ، يقول: "أنا الآن لا أقرأ الجرائد، أياً كانت، أنا الآن أعيش مع الحاسوب، الشبكة العالمية وفرت لي منافذ على العالم كله، أصبح بإمكانك أن تعرف أكثر، وبصورة أقرب إلى الحقيقة، لأن العالم كله أصبح مفتوحاً أمامك، العالم تغير، وسيتغير أكثر".[107]

أما العامل الثاني في التغيير فيتعلّق بالعمل الإنساني لتحقيق التغيير، وعدم الاكتفاء بانتظار الزمن ليقوم به. وقد طرحت الرواية هذه الفكرة من خلال شخصية أم هشام أيضا، وذلك حين طلبت من بكري ألا ييأس ويستسلم لظالمه، وأن يرفع دعوى جديدة ضد هشام المدير مغتصب حقّه.[108]

ولم تكتف الرواية بالحديث عن الأمل في التغيير نحو الأفضل فحسب، بل حدّدت المجتمع المأمول لأهل حلب، إنه مجتمع يتكئ على أصالة المجتمع الحلبي، الأصالة النقية الصالحة المحبة للناس والخير، وتتمثل في جدة بكري وأم هشام، اللتين ترمزان إلى العادات الأصيلة في هذا المجتمع. فكلتاهما تمتلكان حبًّا وخيرا يفيض على كل من حولهما، بالإضافة إلى امتلاكهما ثقافة لافتة للنظر، يصف بكري التشابه بين جدته وأم هشام بقوله: "سيدة عجوز تطالعني بوجه أبيض مشرق وبغطاء على رأسها أبيض، مثل حمامة، كأنها جدتي".[109] ويقول أيضا: "هذه هي جدتي، نعم هي نفسها، تزورني في الحلم تحمل لي الخبز، وتزور جاري في اليقظة تحمل له عشرة آلاف ليرة".[110]

إن الأصالة الحلبية تنطلق من فلسفة خاصة لمعنى الحياة، فهي تدرك جمال الحياة، كما تدرك أن الحياة تستحق منا أن نعيشها وأن نستمتع بها ونقدّرها، تصفها أم هشام بقولها:

> "الحياة جميلة، وتستحق أن نعيشها، لأنها نفحة من روح الله، هذه النسمات الربيعية الهادئة هي الحياة، استمتعوا بها وعيشوا حياتكم، لا تعكّروها، متّعوا أرواحكم، ولا تحرموها متعة التأمل والصفاء، كل ما خلقه الله جميل، لماذا؟ حتى نقدِّر الجمال، ونعيش الجمال، ونكون جميلين، ونشكر الله، ونصنع الجمال مثله في الكون كله، وللناس جميعاً، ولكن نحن لا نقدر هذا الجمال، ولانفهمه، ونفعل كل ما هو غير جميل".[111]

---

[107] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 48.

[108] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 32.

[109] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 20.

[110] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 21.

[111] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 26.

ويبدو الأمل كذلك في المرأة الحرة المثقفة الصبورة التي يراها بكري صانعة الحياة الحقيقية، يقول: "من هي مثل سناء زوجته لا يجوز أن تموت، وكذلك من هي مثل زوجتي نوال، ولكن نوال ماتت، ليمت هشام، ليمت ألف هشام. ليمت كل الذكور، ولتبق المرأة، صانعة الحياة".[112]

والرواية تؤكد على دور الطفولة في المستقبل المأمول؛ فهناء ابنة الخمس سنوات طفلة ذكية، تسأل كثيرا، وتستطيع الدخول إلى الشبكة الدولية، وتمتلك الحكمة مثل جدتها. وهي بشارة خير في نظر بكري، تأتيه كل صباح مثل فراشة صغيرة تبشره بالخير، كأنها روح جدته التي تأتيه كل صباح أيضا. فالجدة وهناء هما الحياة، تتصل الأجيال من خلالهما، وهما تستطيعان إكساب المجتمع أصالته، و"هما معاً الحياة، هما ضفتا الحياة".[113]

إن الرواية تؤكد على دور الأنثى الرئيسي في التغيير الاجتماعي نحو الأفضل؛ فالأنثى هي الأمل في التغيير، أنثى الماضي التي تحمل أصالة حلب، وانثى الحاضر المثقفة الصبورة التي تقف إلى جانب الرجل دائما، وأنثى المستقبل التي تشع ذكاء وفطنة، والقادرة على استخدام المخترعات الحديثة، إنها أنثى تجمع بين أصالة الماضي وثقافة الحاضر والقدرة على مواكبة التطور في المستقبل.

4. الصراع النفسي

الصراع النفسي هو أحد أنواع الصراع، وينشب داخل المرء نفسه، كالصراع بين الحب والواجب.[114] والصراع النفسي يعرف بأنه "تعارض الفرد بين قوتين إحداهما دافعة وأخرى مانعة، وكثيرا ما يجد الإنسان نفسه أنه لا يستطيع أن يشبع إحداهما، خوفا من أن يؤدي هذا الإشباع إلى الوقوف في صعوبات لا يرضى عنها المجتمع".[115]

وترى هورني أن الصراع النفسي هو ظاهرة ملازمة للإنسان، وأن هذا الصراع يرجع إلى "القلق الأساسي" الذي يعاني منه الإنسان بصورة دائمة ومستمرة، نتيجة إحساسه بضعفه وعجزه عن مواجهة القوى الطبيعية والاجتماعية.[116]

ويتجلى هذا الصراع في غير شخصية في الرواية؛ فالشخصيات عامة مأزومة تعيش صراعًا داخليًا بين عواطف متناقضة دفعتها إلى ردود أفعال متباينة تصل إلى حد الغرابة أحيانا. ويبدو أن الصراع النفسي في الرواية نتيجة لسببين: الأوّل: علاقة المظلوم بالظالم، والثاني: علاقة الرجل بالمرأة. ويتعلّق السبب الثاني بضغط العادات الاجتماعية من جهة، وبالظلم من جهة أخرى.

إن علاقة بكري بهشام المدير هي علاقة مظلوم أُغتصِب ماله بظالم سارق مغتصِب لهذا المال. إن هذا الظلم دفع بكري إلى كراهية هشام المدير، ولكننا في الوقت نفسه نجده يبرر وجوده حين يعقد مقارنة بين وجوده ووجود هشام المحاسب جنبا إلى جنب، ويدّعي أن قانون الطبيعة يتطلب وجود القوي إلى جانب وجود الضعيف، ثم نراه يتراجع عن ذلك التبرير، ويؤكد عدم صحته. إنه يعيش صراعا نفسيا في البحث عن تفسير مقنع لوجود أمثال هشام المدير في المجتمع، وهو في بحثه

---

[112] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 109.

[113] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 55.

[114] رونيه ويلك- وأوستن وارين، *نظرية الأدب*، ترج. محي الدين صبحي (بيروت، مطبعة خالد طرابيشي، 1972)، 282.

[115] حسن الدّاهر، *سيكولوجية الإبداع والشخصية*، ط1 (عمان: دار الصفاء، 2008)، 132.

[116] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 358.

يناقض نفسه، فحين يجد مسوغا لوجود أمثاله سرعان ما يتراجع عنه ويؤكد خطأه. إن الصراع النفسي أوقعه في التناقض في إطلاق الأحكام، فهو في حيرة من أمره بين كرهه لهشام مغتصب المعمل وبين تبريره لوجوده، يقول:

"أقول لنفسي: وجود هشام المغتصِب القوي ضروري، وجود هشام المغتصَب الضعيف ضروري، كلاهما ضروريان للحياة، كوجود الأسد والغزال، كوجود الثعلب والأرنب، كوجود شجيرة الورد، وشجيرة القتاد، هذه هي الحياة، هذا هو قانون الطبيعة، هذا هو قانون المجتمع. ثم أرجع إلى نفسي فأقول: لا، هذا كله غير صحيح، نعم، هذا هو الواقع، ولكنه ليس الحقيقة. يا إلهي، كم نحن متناقضون؟!".[117]

ويقع بكري في التناقض نفسه حين يعقد مقارنة بينه وبين هشام المدير، ويبدو حائرا لا يدري من الصحيح أهو أم ذاك الذي اغتصب حقه. هل ذاك المغتصِب الذي يمثل حقيقة الحياة، والقوة الفاعلة في المجتمع، والذي قدّم له تسعة عشر ذكرا، وبنى وأنتج وأثّر، وشبه الأسد في جبروته وعظمته ونظرته الخارقة وقدرته على قهر أعدائه، أم المغتصَب الضعيف الذي ما استطاع فعل شيء أمام ظالميه، ووقف عاجزا أمامهم، كغزال وقع صيدا سهلا للوحوش، وما عاد يستحقّ من الآخرين غير العطف والشفقة.[118]

والصراع النفسي الذي سببه علاقة الرجل بالمرأة نجده في الرواية لدى كل من بكري وهشام المحاسب، وهو نتيجة لعدم قدرتهما على الاستجابة المناسبة نحو المرأة خلال تعاملهما معها، واتخاذهما قرارات خاطئة تجاهها بضغط من المجتمع حينا، وبضغط من الظالم حينا آخر.

إن سوء معاملة بكري للمرأة في الرواية بدافع استجابته للعادات الاجتماعية سبّب له ندما شديدا، ونتج عنه صراع نفسي أواخر حياته، وبرز هذا الصراع في حواراته وردود أفعاله ومنهج حياته. فقد أدى تخليه عن روضة التي أحبته وأخصلت له إلى ندمه الشديد في شيخوخته، وشعر بمدى خطئه حين تركها ومضى إلى غير رجعة، وفرّط بها وبحبها له، وهي التي منحته كل شيء، بينما هو لم يقدّم لها أي شيء، يقول: "هي ستة أشهر فقط، منحتني فيها كل شيء، حقيقة، عقلها وقلبها وروحها، منحتني أيضاً جسدها. ماذا منحتها أنا؟ لا أعرف؟ ماذا أخذت هي؟ لا أعرف؟ هل حققت ذاتها بي؟ هل نسيت قهرها من خلالي؟ ولكن ماذا قدمت لها أنا؟ حتى كلمة حب لم أبح بها، إلا في لحظة الوداع، كم أنا أناني؟!".[119]

وكذلك عانى صراعا نفسيا آخر نتيجة تفريطه بنجوى أيضا، وندم على عدم اتخاذه قرارا صحيحا حين عرضت عليه الزواج منها ومرافقتها إلى المملكة، فكان ينبغي عليه حينها أن يغامر من أجل حبها ويذهب معها؛ فبعض الملوك تخلوا عن العرش من أجل الحب، فكيف قصّر هو في هذا، يقول: "شاورت أحد زملائي، قال لي: "أحد ملوك إنكلترة تخلّى عن العرش من أجل امرأة يحبّها".[120]

إن الازدواجية عند بكري تمثل قمة الصراع النفسي بين ما يريده الإنسان وما لا يريده، فثمة قيود تحد من حركته، كما أن هناك التزامات من المجتمع تضغط عليه وترهقه. فانتماؤه إلى مجتمع تسوده قيم متخلفة وتحكمه الأهواء، واستجابته إلى هذه الأهواء وتلك القيم في مرحلة شبابه، نتج عنها الندم على ما فعله، وأدّت إلى صراع نفسي في نهاية المطاف. فقد أدرك

---

[117] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 18.

[118] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 18.

[119] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 91.

[120] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 61.

بكري في مرحلة شيخوخته مقدار الخطأ الذي ارتكبه حين استجاب لعادات مجتمعه، ولم يستجب لقلبه الذي أحب. فقد كان يعيش بين الحب، المطرقة، والخوف من المجتمع، السندان، وهو لم يمتلك الشجاعة حينها كي ينتصر لحبه، وكانت الغلبة للخوف؛ فحين علم بعلاقة روضة بمدير البنك هرب وهو لا يدري لماذا فعل هذا، وليس من تفسير إلا الخوف من المجتمع الذي ينتمي إليه بكري. إنه يبدو مكرها على أفعاله؛ لهذا نجد لسان حاله يتلفظ بالمثل العربي الشهير: مكره أخاك لا بطل.[121]

وثمة صراع نفسي آخر نشأ لديه مؤخّرا بسبب علاقته بدلال التي استعانت به لإتمام أطروحتها للدكتوراه، ويلحظ الدارس هذا الصراع من محاكمة داخلية يجريها بكري في نفسه، يكشف من خلالها عن تناقض في استجابته لإغراءاتها الأنثوية، يقول: "لم تمارس المحاماة ولا القضاء، ولكنك معها لبست ثوب المحاماة، بل لبست ثوب القضاء. لو أنها منحتك شيئاً من متعة لكنت استجبت، كنت قرأت الرسالة كلها، بل كنت كتبت الرسالة. ولكن لا، هذا غير صحيح، لو تبذلت واستهترت لكنت اعتذرت عن استقبالها في بيتك، ومثلها لا يفعل".[122]

إن السبب الحقيقي وراء صراع بكري النفسي هذا هو حاجته الجنسية، التي تعد حاجة أساسية في الكائن البشري، والتي افتقدها نتيجة عزلته هربا من ظلم المجتمع. وحين التقى بدلال في بيته أثارت فيه هذه الحاجة الغريزية، وخطر بباله أن يستجيب لها، وينال دلال بعد أن يمزّق ثوبها الأبيض. لكن تحقيقها اصطدم بعوائق عدة، يأتي في مقدمتها الأنا الأعلى الذي دفعه إلى كبت رغبته الجنسية بها كما ذكرنا من قبل.[123]

وهشام المحاسب أيضا يعيش صراعا نفسيا أنتج ردود أفعال غريبة؛ فهشام يحبّ زوجته ويضربها بآن، يقول بكري: "صراخ، صوت تحطّم موائد وصحون ووقوع أدوات وحاجات ثقيلة على الأرض كأنها تقع فوق رأسي، جاري هشام يخاصم زوجته كعادته كل صباح".[124]

تأتي معاناته النفسية من ظنه أنه لا يمتلك زوجته، فرغم وجودها إلى جانبه، وعيسشهما في بيت واحد، يشعر أنها بعيدة عنه عقلا وروحا وفكرا. يخاطب أمه في منولوج داخلي: "هذا ما يؤلمني يا أمي، أحببتها، وأحبها، وما أزال أحبها، وهي تحبّني، ولكن ما أزال أحس أن عقلها ليس معي، روحها ليست لي، أنا أختلف عنها وهي تختلف عني، أنا ألتهمها، أفترسها، أنالها كلها، ولكن في النهاية أحس أني لم أمتلك لا عقلها ولا روحها ولا تفكيرها، أحس أنها ليست لي كلها".[125]

إن الصراع النفسي حوّله إلى مجنون، وجعله يضل الطريق، ولا يعرف كيف يفعل معها، يقول: "صدقت يا أمي، أنا والله أحبها، أحبها، أحبها، وأنا مختلف معها، ولكن لا أعرف كيف أتصرف، أود لو أقبّلها وأنا أخاصمها، أنا مجنون".[126]

قد يستغرب قارئ الرواية من الحالة النفسية التي وصل إليها كل من بكري وهشام، ويبدو أن ثمّة مبالغة في الوضع النفسي الذي آلا إليه؛ فمثل هذه التصرّفات لا تؤدّي عادة إلى مثل هذا الضغط النفسي، لكّن الروائي أراد من وراء تضخيم

---

[121] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 101.

[122] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 96.

[123] ينظر دراسة الجوانب النفسية للشخصيات/الظلم.

[124] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 3.

[125] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 27.

[126] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 28.

حالتهما النفسية لفت انتباه القارئ إلى وجودها من جهة، وإظهار الإحساس المرهف لبعض الشخصيات البشرية التي تستجيب بطريقة تبتعد كثيرا أو قليلا عما يألفه العامة، فجعل لكل من بكري وهشام إحساسا مرهفا وألما مضاعفا في نفسيهما؛ "فما الألم في خاتمة المطاف إلا إحساس، ولا وجود له إلا بقدر ما نشعر به. ونحن لا نشعر به إلا بفضل بعض الاستعدادات المتوفرة لجسمنا".[127]

إن الرواية تريد أن تقول: ما زال الإنسان في المجتمع الشرقي متمسكا بعادات مجتمعه وأعرافه، لا يستطيع فكاك نفسه منها، ويجد ذاته منقادا إليها، ومنساقا خلفها رغم عدم صحتها ومخالفتها للعقل أحيانا. وهذا يعني أن هذا المجتمع بحاجة إلى إصلاحات تصوّب أخطاءه، وتساعد أفراده أن يسلكوا طريقا سويّا في قراراتهم. كما تريد أن تقول: إن عدم البحث الجاد عن حلول مناسبة للمشكلات الاجتماعية، واختيار الهروب بدل المواجهة لا يحلّ مشكلات المجتمع، الذي لا بدّ لأفراده من الإصرار على إيجاد حلول ناجعة لتصحيح الأخطاء.

ويمكن أن نتوصل من قراءة الرواية إلى نتيجة مفادها أن عدم تحمل أفراد المجتمع مسؤولياتهم حيال تصحيح عادات مجتمعهم الخاطئة، وعدم إدراكهم ما يترتب عليهم من إجراءات لحل مشكلاته ستؤدي حتما إلى صراعات نفسية لدى بعض أفراده.

5. الحلم في الرواية

يساعد الحلم المحلل النفسي في الكشف عن رغبات وميولات الشخصيات الروائية، و"جوهر الحلم هو حصول الإنسان لا شعوريا في الحلم على ما هو في تصوره في حالة الشعور".[128] فالحلم ابتعاد عن الواقع، وهروب من الحصار المفروض من المجتمع، وفيه يحقق الإنسان آماله المفقودة.

والسبب الذي يدفع الشخصية الروائية للحلم هو الواقع وهمومه وما يحتويه من ظروف تحيط بالشخصية، ولعل الحلم له علاقة بمسألة التوازن النفسي وملاءمة طبيعة النفس السيكولوجية. ويرى يونغ أن الحلم يعوّض الحالمين "عن نقائص شخصياتهم، وفقر واقعهم، والحصار المضروب حول حريتهم في الحركة والحياة".[129]

ثمة نوعان للحلم في الرواية، الأول: الحلم الذي يراه المرء في النوم، والثاني: ما يطلق عليه أحلام اليقظة. واقتصر كلا النوعين على شخصية بكري. وقد برزت هذه الأحلام للقارئ من خلال اعترافات بكري في حواراته الداخلية، وكان للغريزة الجنسية التي استطاعت التفلت وتحقيق رغباتها دورا مركزيا في هذه الأحلام، بالإضافة إلى دور الظلم الذي برز تأثيره في ظهور النوع الثاني.

لقد أدى عدم تحقيق بعض الغرائز الجنسية لدى بكري إلى كبتها، والكبت مصطلح في علم النفس "يشير إلى العمليات العقلية المفترضة التي تنشط من أجل حماية الفرد من الأفكار والاندفاعات والذكريات التي يمكن أن ينتج عنها القلق والخوف والشعور بالذنب إذا أصبحت واعية؛ أي في مجال الشعور الشخصي".[130] ويتعلق الكبت بالجانب "النفسي الذي

---

[127] فرويد، *قلق في الحضارة*، 25.

[128] سيغموند فرويد، *مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي*، ترج. جورج طرابيشي، ط2 (بيروت: دار الطليعة، 1982)، 75.

[129] شاكر عبد الحميد، *الأسس النفسية للإبداع الأدبي* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ص81-82.

[130] عبد الحميد، الأسس النفسية للإبداع الأدبي، 52.

يشتمل على الوظائف المكبوتة الخاصة بالهو؛ وهو ما يعرف عند فرويد بالجانب الخاص بالغرائز من النفس، وهو ما يسمى اللاشعور الذي يشتمل على الدوافع والرغبات البدائية وعلى الذكريات والصور والنزاعات التي تثير القلق إلى حد كبير ولا يمكن قبولها عند مستوى الشعور ومن ثم يتم تحويلها إلى منطقة اللاشعور وكبتها هناك".[131]

يرى فرويد أن "ما يتم كبته لا يخمد أو ينتهي أو يموت، بل يستمر في وجوده الحي عند مستوى اللاشعور، إنه يظهر ويكشف عن نفسه من خلال إسقاطه لنفسه في شكل رمزي مميز خاصة في الأحلام والأفعال اللاإرادية والأمراض النفسية وكذلك في الإبداع الفني".[132] فالأفكار والمشاعر المكبوتة تناور الرقابة الصارمة وتفلت منها وتتسلل إلى الوعي في الأحلام.[133]

إن لقاءات بكري المتكررة في بيته بدلال أثارت فيه الغريزة الجنسية، لكن عدم تحقيقها بضغط الأنا الأعلى الذي يرفض كل رغبة لا تتلائم مع أعراف المجتمع أدى إلى كبتها، فكان الحلم السبيل الوحيد لتحقيق هذه الرغبة، ووصول الهو إلى تحقيق ما عجز عنه في الواقع، يقول بكري:

> "لا بد من الاعتراف. مرة واحدة فقط زارتني من غير موعد، كانت زيارة وحيدة، غريبة، مفاجئة، لم تتكرر. قرع الباب، أو لعله لم يقرع، ما عدت أتذكر بالضبط، فتحت الباب، وإذا هي أمامي، دخلت على الفور، وهي تشير إلى المنديل حول عنقها، من غير أن تتكلم، كأنها تختنق، كأنها لم تستطع فك العقدة، مددت أصابعي إلى المنديل، بدأت معالجة العقدة، أحاول فكها، عنقها بض، ناعم، أبيض شفاف كالبلور، فككت العقدة، أطبقت شفتي على عنقها، ألثمه، أرشفه، أكاد أغرس فيه أنيابي، يكاد الدم ينبثق من العنق، كالغزال يطبق الأسد فكيه على عنقه فيسيل الدم الأحمر على الثلج الأبيض، ألقت بنفسها بين يدي، كأنما أغمي عليها، حملتها بين يدي، لا أعرف كيف حملتها، وأنا الشيخ العجوز، ومضيت بها إلى الداخل، ولكن أحسست فجأة بحركة ورائي، فتح الباب، وأطلت جدتي العجوز بوجهها الأبيض النقي، وثوبها الأبيض الفضفاض. وأستيقظ، ولا جدة ولا دلال. بل تبقى الجدة، وتغيب دلال".[134]

يتساءل القارئ هنا ماذا أراد الروائي بظهور الجدة في هذا الحلم؟!. ويمكن القول إنه إشارة إلى الأنا الأعلى التي برزت للوقوف في وجه رغبات الهو. إن جدة بكري التي كانت ترشده كي لا يضل طريقه في اليقظة، تأتيه لتبين له عيوبه وتهديه سبيل الرشاد في الحلم أيضا. إن الجدة في الحلم تقابل الأنا الأعلى في اليقظة.

وهنا لا بد من الحديث عن نوع آخر من الأحلام في الرواية، والتي يمكن تفسيرها بتجلي الأنا الأعلى فيها، وهي تلك الأحلام التي كانت جدة بكري تزوره فيها. وقد تكرر هذا النوع من الأحلام غير مرّة، وكان اللون الأبيض اللصيق بالجدة قاسما مشتركا بين هذه الأحلام. يخبرنا بكري عن أحدها بقوله: "جدتي الآن تزورني في الأحلام، تزورني بثيابها البيضاء، أحياناً أراها تحمل لي أرغفة خبز بيضاء، لا أعرف معنى هذا؟ ولا أستطيع تأويله".[135]

---

[131] ينظر عبد الحميد، *الأسس النفسية للإبداع الأدبي*، 51-52.

[132] عبد الحميد، *الأسس النفسية للإبداع الأدبي*، 52.

[133] عامود، *علم النفس في القرن العشرين*، 1: 268.

[134] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 107.

[135] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 19.

ويمكننا تفسير هذا النوع من الأحلام بالاستعانة بالنهج الإسلامي. يقول الرسول ﷺ: "الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان"[136]. وانطلاقا من هذا الحديث يقسم ابن سيرين ما يراه الإنسان في المنام إلى ثلاثة أقسام: قسم من الله، وقسم من الشيطان، وقسم ثالث أطلق عليه ضغثا، وهو ما كان مضطربًا من الأحلام، مختلطًا، لا يصحّ تأويله لاختلاطه، والتباسه.[137]

إن حلم بكري هذا من القسم الأول وفق تقسيم ابن سيرين، وقد استثمره الروائي في روايته عن قصد، فهو يريد أن يبين للقارئ دور الجدة في تصويب أخطاء حفيدها بكري. وما يؤكد هذا القول ذكر بكري لرؤياه بعد كلامه عن علاقته غير الشرعية بروضة، يقول:

"شرارة كهرباء تقدح في الفاصل، النار تشتعل، الأسلاك الكهربائية تتفسخ، النار تمتد إلى باب الشقة. أنهض مذعوراً، أسرع إلى غرفة جدّتي، أراها قاعدة تذكر الله، تتلو في القرآن، بعد أدائها صلاة الفجر.

. هل صليت يا ولدي؟ والدك كان لا يترك الصلاة، عليه رحمة الله.

ما أزال أذكر ذلك الحلم، كان مروّعاً، اليوم فقط، عرفت تأويله، بعد أربعين سنة أو أكثر عرفت تأويله، كنت في الثانية والعشرين".[138]

ما هذه الرؤى إلا تنبيه إلهي لبكري للعدول عما يقوم به من أخطاء وفق التفسير الديني للأحلام، وهي تجلي الأنا الأعلى لإرشاد بكري إلى الطريق الصحيح وفق قوانين الدين والمجتمع بحسب نظرة فرويد.

وثمة نوع آخر من الأحلام في الرواية لا علاقة لها بالمنام، وهي ما يطلق عليه أحلام اليقظة، التي تعد أهم مسببات تشتت انتباه الإنسان؛ وذلك حين ينغمس الشخص بأحلامه خلال يقظته، وتسبب الشرود وعدم الانتباه، ويحاول الإنسان من خلالها أن يحقق ما لم يتمكن من تحقيقه في الواقع، أو يعيد إلى خياله صور ذكريات قد مرّت به قبل، وقد تراوده أفكار ذات صلة باللحظة التي يعيشها.

وبرزت أحلام اليقظة غير مرّة في الرواية، وتعددت مسبباتها بتعدد دوافع بكري ومراحل حياته؛ فظهرت الأحلام التي تتصل بدافع الكراهية لهشام المدير في المرحلة المتأخرة من حياته، كما ظهرت في هذه المرحلة الأحلام ذات الصلة بالرغبة الجنسية، وظهرت الأحلام التي تتعلق بالمستقبل وتحقيق الآمال في مرحلة الطفولة.

إن المرحلة المتأخرة من حياة بكري هي الأكثر إظهارا لأحلام اليقظة، وتضمن بعضها ما يشبه المحاكمة المنطقية التي حملت وجهة نظر تنتصر لهشام المدير ولمن يدور في فلكه، ولا سيما السلطة الحاكمة، يقول في منولوج داخلي حين كان في بيت هشام المحاسب:

"صوت ناعم هادئ كالهسيس لا أعرف من أين يأتيني، يهمس لي بلين وهدوء:

. هنا، حبيبي، لا بد من أن أستوقفك قليلاً، وقد استمعت أنا إليك طويلاً، ما تركت أنت شيئاً إلا تناولته، من اقتصاد إلى سياسة إلى دين إلى ثقافة، كنت تعبّر عن وجهة نظرك، وهي وجهة نظر انفعالية، تقوم على أحادية الرؤية، لاتدرك الواقع العملي، ولا تنتمي إلى الوطن، بل تعبّر عن وجهة نظر خارجية، وفكر دخيل،

---

[136] البخاري، باب بدء الخلق، 3292

[137] محمّد الأحمد، "البنية الفنية في قصة يوسف عليه السلام"، *مجلة الإلهيات في جامعة جومشخانة* 15/8 (كانون الثاني 2019): 165.

[138] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 82.

هو الغزو الثقافي بعينه، وهو العولمة التي يبدو أنك تنتمي إليها، وحان الوقت لكي تستمع، استمعني أنت الآن إلى النهاية من غير مقاطعة، وحافظ أنت على هدوئك، ولا ضرورة للتوتر والانزعاج والانفعال والتشنج، هشام يحبني، افتح قلبه، تجده يحبني، انظر إلى صورتي، كيف ملأ بها الجدار.

أرفع رأسي، الطفل أمامي في الصورة يبتسم، يمسح دموعه، يكبر، تملأ صورته الجدار، أشقر، طويل، لم تحن ظهره الأيام، لم تسقط شعرة من رأسه، ذقنه حليقة، بشوش الوجه، يبتسم، بل يضحك، وهو يتكلم:

. هذه العدائية لن تفيدك، ولن تضرّنا، أنت من جيل انتهى، نحن لا نعوِّل عليك، أنت في الخامسة والستين، كل من في جيلك ماتوا، ولم يبق منهم إلا القليل، نحن نعوِّل على الجيل الجديد، لاحظ هشام، كم يحبني، أبوه سماه باسمي، لأنه يحبني، هل تعرف؟؟ في السنة التي تحولت فيها ملكية المعمل إليّ بطرق شرعية، هي السنة نفسها التي مات فيها والدك، رحمه الله، وهي السنة نفسها التي ولد فيها هشام، الناس كلهم يحبونني، أنت تنطلق من العداء والكراهية، أنا معك حيث كنت، أسمع وأرى، كنتَ في شقتك تحدث نفسك كما تشاء، وأنا أستمع إليك، تغاضيت عنك".[139]

حلم بكري هذا ذو صلة بمحاولة فهمه لواقع هشام وعلاقته بمشكلاته الزوجية. وقد رأى بكري في دخيلة نفسه أن ثمة علاقة بين هذه المشكلات وبين ما تروج له السلطة في الصحف التي كان هشام المدير يعطيها لهشام المحاسب. لقد أراد الروائي من خلال تقديم هذا الحلم أن يبين أن هشاما المدير وأمثاله هم سند السلطة الحاكمة وأدواتها في الوقت نفسه، كما أراد أن يبين أساليب التلاعب التي يستخدمها هؤلاء في إقناع المجتمع بحسن إدارتهم وحرصهم على المواطنين وتحقيق راحتهم.

إن الروائي ينطلق في هذه الحلم من النظرة المناهضة لأفكار هشام المدير والسلطة الحاكمة، وهي وجهة نظر بكري التي تحمل في طياتها الكراهية نتيجة الظلم الذي لقيه. ويريد من خلال تقديم هذه الرؤيا إبراز الفكر المناقض لفكر بكري، أو النظرة المفارقة لنظرة بكري إلى هشام المدير وأمثاله، وترك الحكم للقارئ. والحقيقة أن الإنسان يتعرض لمثل هذه المحاكمات في حياته الشخصية، فكم منا من حاكم أفكاره بما يناقضها في دخيلة نفسه.

ونظرة بكري إلى مديره أكرم في البريد ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرته إلى السلطة ونظرته إلى المدير هشام أيضا، وهي نظرة تمتزج بكراهية غير مفهومة الأسباب كما ذكرنا من قبل، يقول بكري:

"لم أكن لأصارحها. تقفز إلى ذهني صورته، هيئته، يدخل في شراييني، يملأ مخيلتي، فأنطفئ. لا، ليس مدير المعمل، هشام، هو مدير آخر. قصير، بدين، ممتلئ، مدوّر، رأسه كبير، مدوّر مثل جسمه، كأنه كرة شوك، كأنه كرة قدم، عيناه مدورتان، نظرته حادة شرسة عدوانية، كلما رأيته حسبته يخاصمك، في وجهه انقباض وانحباس، كأنه يتذوق الحامض دائماً، كأنه على وشك التقيُّؤ، كزّ النفس، فمه واسع، شفتاه غليظتان، في زاويتي فمه بقايا من قهوة، وبين أصابعه آثار من سكائر لا تنطفئ ولا تنتهي، على عينيه نظارة طبية سوداء، ما يفتأ بين لحظة وأخرى يثبّتها على أنفه بدفعة من سبابته".[140]

[139] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 49.

[140] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 67.

كما تخليه بعد التقاعد: "تخيلته في جلابية بيضاء، ولحية بيضاء، وعمامة بيضاء، وهو يثبت نظارته الطبية السوداء على أنفه، لعله استبدل بها نظارة بيضاء".[141]

إن نظرته تمتزج بالسخرية والاستهزاء من التناقضات التي تحملها هذه الشخصيات في الحياة، فكيف لمثل أكرم الاستغلالي أن يظهر بشكل نقيض لحقيقته في آخر حياته. وكأنه يريد أن يقول للقارئ احذر هذا الشكل من الناس، فهم يتنكرون بأزياء تخفي حقيقة شخصياتهم الشريرة؛ إن هؤلاء أمضوا جلّ حياتهم ينفثون سمومهم في المجتمع ويرتكبون الجرائم ضد أفراده.

بيد أن كراهية بكري للجلابية البيضاء شهدت تغيرا في نهاية الرواية، وذلك حين قرر هو نفسه أن يلبس الجلابية البيضاء. وكأن الروائي أراد أن يضع القارئ أمام حقيقة مهمة، وهي أن ليس كل من يلبس الجلابية البيضاء كان فاسدا من قبل، فربما هو إنسان جيد كبكري. وهذا يعني أن الجلابية البيضاء ما هي إلا ثقافة حلبية يلتزم معظم الناس في أواخر حياتهم بها، إنهم يلبسونها ويذهبون إلى المساجد، ولكن يجب على المرء أن يدرك أن هذه الجلابية ليست دليلا على الصلاح فحسب، بل ربما ارتداها من أمضى حياته يفسد ويضر الناس.

وثمّة أحلام يقظة تتعلق بالمرأة وتتصل برغبة بكري الجنسية، ولا سيما حلمه في نوال قبل الزواج بها، يقول:

"ذهبنا ذات يوم بسيارتي في نزهة إلى مصيف قريب، هي وابنتها وزوجها، وأنا، أمضينا يوماً، رجعنا مساءً، على المائدة كانت أنظارنا قد التقتْ، أحسستُ في نظرتها شيئاً، أو في نظرتي أنا، لعلي تمنّيْتُها زوجة، أو اشتهيتُها، طردتُ الفكرة، مرّتْ عفوَ الخاطر، نسيتُها نهائياً".142 وكذلك حلمه في دلال أثناء قيادته السيارة: "زجاج السيارة أمامي يشف عن تسريحة شعرها واللفائف المثبتة بعناية، ومنديل عنقها المعقود عند الطرف الأيمن، كأنني أراها أمامي الآن، كم كنت أتشهّى لو أفك ذلك المنديل ذات يوم".[143]

ويبدو حلمه بنجوى مختلفا من حيث دافعه عن الحلمين السابقين. إن دافع الشعور بالظلم هو الذي دفعه إلى هذا الحلم، ظلم هشام المدير أولا، وظلم الرجل الذي سلبه نجوى ثانيا، يقول:

"أحياناً أتخيلها وقد عادت، وأتخيل زوجها قد أصبح مدير التربية، وزير التعليم، أتخيله قد سلبني زوجتي، حين زارتني بصحبته لتودّعني لم تذكر اسمه، قالت: "زميل لي متخرج معي في الدورة نفسها في كلية العلوم، سنسافر معاً إلى القصيم، في نجد". حتى صورته نسيتها، أتخيله مثل هشام، المدير الذي سلبني المعمل. أحياناً أتخيل أنها مبعوثة من طرف المدير، السيد هشام، أقول: "هو الذي أرسلها إليّ، كي تشقى بها حياتي"، ولكن أنا من اتصل بها، ودعاها لاستلام الرسالة المسجلة، أحياناً أتخيل زوجها واحداً من أقارب المدير، أحس أن الخيوط كلها بيد المدير، وأنه يحرّكني مثل دمية. أحس أني قمر تابع واقع في جاذبية المدير، أطوف حوله، أدور في فلكه، وكل ما في حياتي هو بتأثير منه، في بعض الأحيان أتوهّم أنني سأتعرض للاغتيال فأسخر من نفسي".[144]

---

[141] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 73.

[142] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 76.

[143] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 93.

[144] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 63.

إن هشام المدير سبب عقدة نفسية لبكري؛ إنه سبب آلامه كلها، والمسيطر على كل مفاصل حياته، والمتحكم الأوحد بكل جزئية من جزئياتها.

أما حلمه بروضة فذو علاقة بثقافة الإنسان الحلبي عامة، يقول: "أتخيلها الآن في شقتها الصغيرة في الدور الخامس، وهي في ثياب بيض تتعبد الله. لعلها أغلقت النافذة المطلة على البرج، سدتها نهائياً، وعلقت فوقها سجادة صلاة فيها رسم يمثل الكعبة المشرفة... جدتي، يرحمها الله، كانت تعلّق مثل هذه السجادة في غرفتها".[145]

إنها صورة لنهاية الإنسان الحلبي عامة، فالمجتمع الحلبي، ذكورا وإناثا يمضون حياتهم بحلوها ومرها، بصحائحها وأخطائها لكنهم في النهاية يلجؤون إلى الدين، فالظالم منهم يحاول أن يتستر بالدين، ويتظاهر أمام أعين الآخرين بصلاحه، وربما ندم عما اقترفه من جرائم، فيكون صادقا في ظهوره حينها. والمظلوم في هذا المجتمع يلجأ إلى الدين أيضا في نهاية المطاف، ويحاول أن يحقق سعادة طال انتظاره لها، وفشل في تحقيقها في حياته. ذلك هو المجتمع الحلبي، وتلك هي الحياة في حلب. إنك تمشي فيها فترى كبار السن غالبا ما يلبسون الأبيض، يغطون به عيوبهم ومعاناتهم، ويحاولون أن يصلوا إلى راحة نفسية يجلبها لهم الالتجاء إلى الله عز وجل.

ومن أحلام اليقظة ما كان في طفولة بكري، يستعيد أحدها بقوله:

> "عندما كنت في السادسة، أو السابعة، نظرت إلى السماء، صعدت إلى سطح هذه العمارة، نظرت إلى السماء، رأيت السحب وهي تمشي، شعرت بالقبة السماوية الهائلة، أحسست بالكون الكبير، انتابني شعور بأنني نبيّ، وأن ملكاً من السماء سيهبط علي، وفي مرة أخرى تصورتُ طوفاناً سيغرق الأرض كلها، ويموت الناس جميعاً، ولا تبقى سوى امرأة واحدة، أتزوجها، فننجب ذرية جديدة تملأ الأرض".[146]

إن هذا النوع من الأحلام يعبر عن الرغبة في تنمية الذات، والتمهيد للإبداع والاختراع، حيث يسعى الطفل إلى تحقيق الصورة الرائعة القوية التي كونها عن نفسه في خياله.[147] وهذا الحلم إشارة إلى الهدف العظيم للطفل بكري، وهي حالة صحية، فكثيرا ما يحلم الأطفال بهذا النوع من الأحلام وتكون مرتبطة بتفكيرهم وإرادتهم ورغباتهم رغم ابتعادها عن الواقع لكنها ذات أثر في المستقبل. إن بكري الطفل لم يحقق ما يريد عندما كبر بسبب هشام المدير. إن الروائي يريد أن يقول للقارئ إن أمثال هشام المدير يقتلون أحلام الطفولة.

وتخيل بكري في نهاية الرواية منظر المحاسب مشنوقا، يقول: "مخيّلتي تمتلئ... حبلٌ مدلّى من السقف، تحته رزمة الجرائد، هشام بجسمه الصغير الناحل يتدلى بالحبل من عنقه داخل جلابيته البيضاء.... صورة الطفل على الجدار ممزقة... في الحديقة بقايا نارجيلة محطَّمة متناثرة قرب البنفسجات الناعمة الحزينة..... لقد برّ بقسمه، فلن يدخن النارجيلة بعد اليوم...".[148]

وأنهى روايته بتخيله لحماماته البيض حرة طليقة: "الحمامات البيض تحلّق في فضاء الريف الحر".[149]

---

[145] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 92.

[146] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 23.

[147] ممدوح الكناني، *سيكولوجية الطفل المبدع* (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2010)، 327.

[148] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 110.

[149] محبك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 110.

إن الصورة الأخيرة التي ارتسمت في مخيلة بكري تلخص الرواية؛ إنها صورة حزينة تعبر عن حزن مدينة حلب، كما تعبر في الوقت نفسه عن الأمل في حرية المرأة التي تشير إليها الحمامات البيض المحلقة في فضاء الريف.

خاتمة

عنيت الرواية بشكل رئيسي بالجانب النفسي، واستفادت من تقنية تيار الوعي، ونجحت إلى حد بعيد في الغور في نفسيات شخصياتها، والكشف عن محتواها النفسي والداخلي، ومنحت الحلم بنوعيه دورا إيجابيا في إضاءة البواطن الداخلية للشخصيات وتعريتها للقارئ. كما استطاعت تعرية نفس الإنسان الحلبي، والكشف عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره. فقد أبرزت مستويات مشاعر الحب والكراهية والغربة التي يعانيها، وأظهرت جانب الأمل الموجود في نفسه، كما بينت الجانب النفسي المشترك للإنسان الحلبي.

واستطاعت الرواية أن تقدّم البيئة الحلبية بوصفها مكانا يشهد تغييرات ثقافية واجتماعية، ويهيئ تربة صالحة لنمو الفساد، الذي ينتج الاستغلال والظلم والكراهية والغربة النفسية. لكنّ حلب في الوقت نفسه تمتلك من الدماء الجديدة ما يجعل الأمل موجود لدى أبنائها لتجاوز المحنة التي تمر بها هذه المدينة.

ويمكن القول إن بكري يحمل الكثير من مشاعر وأفكار وأحاسيس المؤلف نفسه، والعارف للدكتور أحمد زياد محبك يدرك أن في بكري الكثير من صفاته. فمحبك عمره يقارب عمر بكري في الرواية، وهو يستخدم الحاسوب في حياته على نحو واسع، كما أنه يتمسك بعادات حلب وتقاليدها الاجتماعية، ويحب أم كلثوم وصباح فخري ومُحَمَّد عبد الوهاب، وهو متعاطف مع المرأة على نحو كبير كما هو بكري في الرواية.

وبناء على هذا نستطيع القول إن زياد محبك حمّل شخصية بكري الجانب المظلم من شخصيته، فما الفكر الذي يتبناه بكري والثقافة التي يحملها، ومشاعر الحب والكراهية والغربة والأمل في داخله، إلا جزء لا يتجزأ من شخصية الكاتب نفسه.

المراجع

ابن خروف، سامح. *الاغتراب في رواية كراف الخطايا*. رسالة ماجستير، جامعة حاج لخضر في باتنة، 2011.

ابن منظور. "ظلم". *لسان العرب*. تح. عبد الله علي الكبير– مُحَمَّد أحمد حسب الله– هاشم مُحَمَّد الشاذلي. 4: 2756. 6 مجلدات. القاهرة: دار المعارف، د.ت.

الأحمد، مُحَمَّد. *"البنية الفنية في قصة يوسف عليه السلام"* . مجلة الإلهيات في جامعة جومشخانة 15/8 (كانون الثاني 2019): 154-173.

برناوي، قطر الندى. *البعد السيكولوجي في رواية أحلام مدينة لفريدة إبراهيم*. رسالة ماجستير، جامعة مُحَمَّد خيضر بسكرة، 2017.

بيتروف، س. *الواقعية النقدية في الأدب*. ترج. شوكت يوسف. دمشق: وزارة الثقافة، 2012.

الجرجاني، علي بن مُحَمَّد السيد الشريف. "ظلم". *معجم التعريفات*. تح. مُحَمَّد صديق المنشاوي. 121. مجلد واحد. القاهرة: دار الفضيلة، د.ت.

الدّاهري، حسن. *سيكولوجية الإبداع والشخصية*. عمان: دار الصفاء، 2008 .

ويلك، رونيه – وارين، وأوستن. *نظرية الأدب*. ترج. محي الدين صبحي، بيروت، مطبعة خالد طرابيشي، 1972.

زيتون، لطيف. *معجم مصطلحات نقد الرواية*. لبنان: دار النهار للنشر والتوزيع، 2002.

سعيد، جلال الدين. "حب". *معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية*. 143. مجلد واحد. تونس: دار الجنوب للنشر، 2004.

شاكر، عبد الحميد. *الأسس النفسية للإبداع الأدبي*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

صليبا، جميل. "خوف". *المعجم الفلسفي*. 1: 545. مجلدان. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982.

عامود، بدر الدين. *علم النفس في القرن العشرين*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001.

عباس، فيصل. *التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية*. بيروت: دار الفكر العربي للطباعة والنشر، 1996.

العبد الله، يحيى. *الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلول الروائية*. عمان: دار الفارس للنشر و التوزيع، 2005.

فرويد، سيغموند. *الأنا والهو*. ترج. مُحَمَّد عثماني نجاتي. بيروت: دار الشرق، 1982.

فرويد، سيغموند. *مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي*، ترج. جورج طرابيشي. بيروت: دار الطليعة، 1982.

فرويد، سيغموند. قلق في الحضارة. ترج. جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1996.

الفيروزآبادي، مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب. "ظلم". *القاموس المحيط*. تحق. مُحَمَّد نعيم العرقسوسي. 1134. مجلد واحد. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2005/1426.

الكناني، ممدوح. *سيكولوجية الطفل المبدع*. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2010.

محبك، أحمد زياد. *حمامات بيض ونارجيلة*. حلب: دار الفرقان، 2011.

ملفوف، صالح الدين. "نظريات علم النفس في الرواية الحديثة رواية السراب نموذجا"، *مجلة الآداب واللغات في جامعة قاصدي مرباح* 9 (مايو 2010): 314-319.

العمرو، عبد الله. "ثقافة الكراهية وصلتها بالثقافتين الإسلامية والغربية"، *مجلة العلوم الشرعية* 34 (محرم 1436هـ): 345-386.

الشاذلي، عبد الحميد. *الصحة النفسية وسكولوجية الشخصية*. القاهرة: دار المكتبة الجامعية، 2001.

Kaynakça

İbn Harûf, Sâmih. *el-'İgtirâb fi Rivâyeti Kerrâf el-Hatâyâ*. Yüksek Lisans Tezi, Camiatu Hâc Lâhzar fi Bâtnâ, 2001.

İbnu Menzûr. "Zulm". *Lisênu'l-A'rab*. Thk. Abdullah Ali el-Kebîr- Muhammed Ahmed Hasebullah- Hâşim Muhammedu'ş-Şâzilî. 4: 2756. 6 Cilt. el-Kâhira: Daru'l-Mâa'rif, t.s.

Ahmed, Muhammed. *"el-Bunye el-Fenniyye Fi Kissati Yusuf Alehi's-Selêm"*. Gümüşhane Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi 8/15 (Ocak 2019): 154-173.

Bernâvî, Katru'n-Nedâ. *el-Bu'du's-Sikolojî fi Rivâyet Ahlâm el-Medîne li'Ferîde İbrahîm*. Yüksek Lisans Tezi, Camiatu Muhammed Hayzar, 2017.

Bîtrûf, S. el-*Vâki'iyye e'n-Nekdiyye fi'l-Edeb*. Çev. Şevket Yûsuf. Dimeşk: Vizâratu's-Sekâfe, 2012.

Curcânî, Ali Bin Muhammed es-Seyyid eş-Şerîf. "Zulm". *Mu'cemu't-Tâ'rîfât*. Thk. Muhammed Sıddîk el-Minşâvî. Kahira: Daru'l-Fazîle, t.s.

Dâhirî, Hasan. *Sikolojiyyetul-'İbdê'i ve'l-Şahsiyye*. Ammân: Daru's-Safâe, 2008.

Wellek, Rene – Warren, Austin. *Nezeriyyetu'l-Edeb*. Çev. Muhyiddin Subhi. Beyrût: Matbaa'tu Halid Tarâbîşî,1972.

Zeytûn, Latîf. *Mu'cem Mustalahât Nakdi'r-Rivâye*. Lübnân: Daru'n-Nehâr li'n-Neşr ve't-Tevzi', 2002.

Sa'id, Celaluddîn. "Hbb". *Mu'cemu'l-Mustalahât ve'ş-Şevâhid el-Felsefiyye*. 143. 1 Cilt. Tunus: Daru'l-Cenûb Linneşri, 2004.

Şakir, Abdulhamid. *el-Ususu'n-Nefsiyye li'l-'İbdâi'el-Edebî*. Kâhire: el-Heyetu el-Masriyye el-Amme lilkitâb,1992.

Salîbê, Cemîl. "Hvf*". el-Mu'cemu'l-Felsefî*.1: 545. 2 Cilt. Beyrût: Daru'l-Kitâb el-Lübnânî,1982.

'Âmûd, Bedruddîn. *'İlmu'n-Nefs fi'l-Karnil-İşrîn*. Dimâşk: İttihâd el-Kuttâb el-'Arab, 2001.

Abbâs, Faysal. *et-Tehlîl en-Nefsî ve'l-'İtticâhât el-Frûydiyye*. Beyrût: Daru'l-Fikr el-Arabî lit-Tibâ'ti ven-Neşr, 1996.

Abdullah, Yahya. *el-İgtirâb Dirâse Tahliliyye li-Şahsiyyêt et-Tâhir Bin Cellûl er-Rivâ'iyye*. Ammên: Daru'l-Fâris linneşr ve't-Tevzî', 2005.

Freud, Sigmund. el-Enâ ve'l-Huva. Çev. Muhammed 'Usmânî Necâtî. Beyrut: Daru'ş-Şark, 1982.

Freud, Sigmund. Musâheme fi Târîhi Harekti't-Tahlîli'n-Nefsî. Çev. Côrc Tarâbîşî, Beyrut: Daru't-Talî'a li't-Tibâ'a ve'n-Neşr, 1982.

Freud, Sigmund. Kalak fi'l-Hazâra. Çev. Côrc Tarâbîşî, Beyrut: Daru't-Talî'a li't-Tibâ'a ve'n-Neşr, 1996.

Fîrûzâbâdî, Mecduddin Muhammed bin Ya'Kûb. "Zlm". *el-Kāmûsul-Muhît*. Thk. Muhammed Na'îm el-A'raksûsî. 1134. 1 Cilt. Beyrut: Muessesetue'r-risâle, 1426/2005.

Kenâni, Memdûh. Sikolojiyyet et-Tiflu'l-Mubdi'. Ammân: Daru'l-Mesira linneşri ve 'l-Tevzî', 2010.

Muhabbik, Ahmed Ziyâd. *Hemâmât Bîz ve Nârcîle*. Halep: Daru'l-Furkân, 2011.

Melfûf, Sâlihuddîn. "Nâzariyyât 'İlmu'n-Nefs fi'r-Rivâye el-Hadîse Rivayetu's-Serâb Nemûzecen", *Mecelletu el-Êdêb ve'l-Lugât fi Câmi'at Kâsidî Mirbâh* 9 (Mayıs 2010): 314-319.

Amr, Abdullah. "Sekāfetu'l-Kerâhiyye ve Sıletuhâ b's-Sekâfeteyn el-İslâmiyye ve'l-Garbiyye". *Mecelletu'l-'Ulûmi'ş-Şer'iyye* 34 (Muharrem1436): 345-386.

Şâzilî, Abdulhamid. es-Sıhetu'n-Nefsiyye ve Sikûlgûciyyetu'ş-Şahsıyye. Kâhire: Dâru'l-Mektebetu'l-Câmi'iyye, 2001.